منير الحافظ

الوعي اللغوي

الجمالي في فلسفة الكلام

دراسة
فلسفية

منير الحافظ

الوعي اللغوي

(الجمالي في فلسفة الكلام)

دراسة

عنوان الكتاب : الوعي اللغوي «الجمالي في فلسفة الكلام»
اسم المؤلف : منير الحافظ
الناشر : دار الفرقد
الطبعة الأولى : 2005

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق
هاتف: 6618303
تلفاكس: 6660915
ص . ب: 34312

تصميم الغلاف: الفنان الحكم النعيمي

الإهـداء

زوجتي عائدة..

إليكِ أنتِ.. تخليداً لوجع الحب

الذي ربطني بك وبالكلمة الخلاّقة.

منير

الزمن اللغوي بين الذكاء الفطري والوعي المكتسب

اللغة (Linguistigue) علم مثل سائر العلوم الأخرى التي ترتقي بالحياة الإنسانية، بيد أنها تتميز عنه من حيث أنها من أهم الوظائف المعبرة عن جملة المفاهيم العلمية المتنوعة، وشأنها شأن أي علم يُعنى بقضايا الإنسانية عامة، وعلى وجه الخصوص، عنايتها في الكشف المتواصل عن حقيقة ما بداخل الذات "المستبطن" والمحيط البيئي "الخارجي". ونستطيع القول في أن اللغة تعبير واعٍ عن المعنى الحقيقي لوجود الإنسان، وإفصاح عن خصائص القيم الجمالية المستوطنة في خواص الوجود، القابلة للارتقاء، تلك القيم الخلّاقة التي نطورها ونتطور بها، خلافاً لما هي الحال عليه لدن الكوائن الأخرى. إذا كانت اللغة أسمى مستويات الوعي العقلاني، فهي الأقدر على التجسيد (Somatise) المعرفي، إذ أن وظيفة اللغة، عرض مواقف متجلية للوعي والتعبير الأمثل عنها، فاللغة حالة اختبار وتحرٍ تبرز قدرة الوعي على تجاوز الفهم المعقد لكافة اللحظات الراهنة المتشاكلة مع الذات، وتُحدد نمط العلاقة بينها وبين سلوكنا إزاءها، ففي زمن الإنسان البدائي، توجس خيفة من ظواهر الحياة ومظاهرها الغامضتين، وظلت عصيّة على الفهم والتحليل، وألفى نفسه في متاهة من الأسرار المعقدة التي تعذر وعيه على فك رموز

ألغازها، مما حفزه لأن يقيم علاقة طقسية مع الظاهرات الدائمة، أملاً في خلق قرابة بينه وبينها، وشجعته على فهم ثمة شيء من هذا العالم الأسطوري الذي تحركه قدراتَ خفية متعددة القوى، فتصالح معها على أساس من العلاقات الروحية التي ارتقت إلى درجة التقديس، فجعل من الإشارة والحركة والرمز علامات تفاهم وأدوات تواصل، وهذا ما قرأناه في لغة الرسوم والأشكال واللقى الأخرى التي تركها إنسان المحاكاة الأولى الذي اتّخذ من اللغة البدائية وظائف سحرية تقرّبه من هذه القوى المجهولة، فما لبثت أن تطورت لغة المحاكاة من "تميمة" سحرية إلى وظيفة معرفية وجمالية وروحية واجتماعية، وغدا كل وعي لغوي في النتيجة تجربة جمالية تجسد قيماً معرفية، اتُخذ منها مفاتيح تجيب على جملة الأسئلة التي يرسلها الوجود ويحاكيها في مظانها، على اعتبار أن الإنسان كائن عاقل خاضع لامتحان معطيات الوجود، وينبغي أن نميز، أن ظاهرة اللغة حالة داخل الذات الإناسية (Humansime)، وليست من خارجها، بمعنى أن التحولات والحوافز والنزوعات والإرهاصات والحاجات التي تتعلق بالسلوك الإنساني هي التي تجيب على أسئلة الحياة الملحة، فيتمثلها الوعي رؤى ومواقف وقيم ومعتقدات وسلوكاً في علاقاته الإنسانية.

قمين بنا تحرّي الكيفيات والوقائع والفعاليات التي هيأت الظروف المؤاتية لنشوء ظاهرة اللغة الإناسية، وتجدر الإشارة إلى أنه ليس بالقطع معرفة كيف ومتى نشأت اللغة؟ وأن كلّ ما رأته التحريات والأبحاث والدراسات والرؤى ليست إلا فرضيات لا تستند إلى حقائق مثبتة، لكننا قد نُحايث بعض الحقائق في تخميناتنا في أنه ما كان عند الإنسان البدائي (وعياً لغوياً مكتسباً)، غير أنه ساد ولحقب زمنية مديدة تعتبر من أطول

الأطوار (ذكاء لغوي فطري) وقد اعتمد الأصوات الوحشية لقضاء حاجاته عن طريق تقليد الأصوات التي يتلقاها عن عالمه الخارجي، فيقضي القول في أن نشأة التعبير اللغوي الغريزي القائم على تقليد الأصوات الوحشية، وهذا ما يجعلني أعتقد دون قطع في أن لها رموزها "السيميائية" (Semalogyse) ومعانيها الدلالية البسيطة المحددة، ولا تخرج عن نطاق بيئتها المحددة، وأنه لمن أفدح الخطأ نفي إشارات التخاطب وأشكال الاتصال البدائية بين أبناء الجنس البشري في الزمن الكهفي أو السرحان القطيعي، فالمحاكاة لم تستكمل بعد معانيها، وكل ما أطلق عليه بـ كلام أو لغة جاء من بعد أن أصبح الإنسان مستقراً، وانبرى يثبت الصوت صورة بالرسم، أو يعبر عنها بالحركة، أو يرسمها حروفاً، وجعل من إيقاع الصوت السائد، أو المتفق عليه غريزياً بـ كلمة لها معنى دلالي، فاقترن الصوت بالصورة داخل معملية المخيلة البشرية، وما لبث أن تحوّل الوعي الصوتي إلى وعي لغوي متداول في علاقات الاتصال الجماعي، ومن هذه الفعالية الغريزية، شعرت ملامح تلوح في الأفق مبشرة بميلاد الإنسان اللغوي. طبيعي، أن هذه الرؤى (Insights) مجرد فرضيات من عندنا، وأنا لستُ عالماً أنثروبولوجي (Amthropologigue) متخصص في علم الأجناس البشرية أو سلالاتها، ولست باحثاً سوسيو لكتاتي ( ) متخصص في علم اللغات الجماعية، ولست منظراً فينومينولوجي (Phenomenologie) متخصص في علم اللسانيات، لكنني أخمن أن اللغة مزيج من صنع المخيلة والانفعال الذاتي إزاء ما نسمعه من أصوات أو ما نراه من مشاهد أو من توضعات طبيعية، بغية تلبية حاجاتنا البشرية.

أستطيع القول في أن عوامل نشأة اللغة هي نتيجة منطقية للحاجة، وأجدني لا أتفق البتة مع نظرية إيحائية اللغة، من جانب أن الشعوب قد

سبقت لغة الأديان في وعيها اللغوي ومدوناتها الكتابية، ولا أرى بائساً من التذكير في أننا قد أرجعنا اللغة الأسطورية إلى النزوع الديني عند إنسان الزمن الأسطوري من حيث أن كلَّ المعارف والمفاهيم التي تداولها عن طريق الوعي اللغوي كان يدركها تماماً، أنها لم تكن وحياً إلهياً من خارج واقعه البيئي من (نار- برق- زلازل- أنهار- مطر...إلخ) وما فتئ أن أصبح الوعي اللغوي متعالياً حين أمسى النزوع الروحي متوجهاً نحو إله متعالٍ خارج الواقع العياني.

إن ثنائية اللغة والطقس في الوعي المقدس قد أنتجت الأسطورة التي بدورها تخلّقت على نحو متطابق مع الواقع عكس ما رآه الآخرون، فمن خلال دراسات النصوص الميثيولوجية(Mytheologiue) كشفت لنا حقيقة معرفية، أنه ما دام هنالك نزوع انفعالي ماورائي محكوماً بدلالات تبحث عن معاني الخلق والوجود، سيبقى الوعي اللغوي يؤسطر العالم، وستظل الرؤى منساقة حكماً خلف مفاهيم غيبية لاعيانية، وأنه من غير الممكن دحض الرمز القدسي في كلِّ مخاييلنا وأفكارنا ومعتقداتنا وطقوسنا في أي زمان، والدليل على صحة رؤيتنا، مازالت مفاهيم جمّة تؤسطر أفكارنا ومعتقداتنا وتتحكم في أحوالنا النفسية والروحية، ومن هذا الجانب على سبيل المثال لا الحصر، يجعلنا نتشبث بأصول التراث الإنساني الذي يتضمن معظم قيمنا الروحية والفكرية والأخلاقية والمعتقدية والتأريخية والثقافية.. إلخ. فما هو الماورائي المتحكم بمقدرات الكونية؟ سؤال ما زال يراود المخيلة والرؤى والعقل البشري منذ البدء، ولم يلق بعد جواباً مثبتاً بصورة محكّمة، فالخلاّق لغز يستعصي على الدماغ البشري إدراكه مباشرة وبصورة كلية قياساً على أحوالنا الراهنة والشروط التاريخية المحكومين به، لكن أثره في تخلقاته يدل إلى أن العالم مخلوق كلّي تام من قبل خالق كلّي تام.

فما هي الأسطورة في نسيج الوعي اللغوي؟

عنت كلمة أسطورة "ميثولوجية" أنها الفكر البدائي المتسم بملامح قدسية، واتخذت من الظواهر والأحداث قيماً تمثلتها شعوب تلك العصور فسُطر ودوِّن هذا الفكر حتى بات منهجاً معرفياً وتاريخياً أفصح عن درجة الوعي عند إنسان تلك الحقب. لقد اعتبر النقد التحليلي الحديث في نظرياته أن المقولات الأسطورية ضرب من الأباطيل والأخيلة، ورؤى أخرى أقرّت بأنها حكاية واقعية مقدسة تفصح عن مجاهيل لها تأثيرها في الحياة الطبيعية والروحية والنفسية، ورؤى أرجعت الوعي الأسطوري، إلى أنه تعبير عن عقلية بدائية ربطت عمليات التفكير بعالم "الأرواح" المتعالية، الأمر الذي جعل الوعي الأسطوري يقتنع بوجود قوة غير عيانية فوقية تتحكم في حركة الوجود وظواهره، فجعل منها آلهة معبودة لأسباب عدة، أولها: عدم قدرة الوعي الأسطوري على تفسير وتحليل هذه الظواهر، ثانيها: لم تُعبد الظواهر وإنما عُبدت القوة المجهولة الخارقة التي تحرّكها وتسيطر عليها، ثالثها: البحث عن نشأة الوجود وماهية الواجد في طرائق من التأمل والتأويل والترميز، رابعها: تحليل الواقع معرفياً لإبراز ظواهر الوجود بوعي تأملي بدائي يقترب من العلمانية ولإمكان تسخير هذه الظواهر لمنفعته.

حاول إنسان الوعي الأسطوري أن يبدع نظريات بدائية عدة أرجعت العالم إلى حقائق تفسر أسرار الحياة الكونية، فحصل أن صُنفت نظريات تعلقت بالأحوال الطبيعية، والنوازع الدينية، والدلالات الرمزية، والأحداث التاريخية، والدوافع النفسية، والأنماط اللغوية، والسير الشخصية، والمعارف الفلسفية، فنتج عنها كم هائل من الإبداعات الروحية والأدبية والجغرافية وممارسات الرقى السحرية والأحكام التشريعية والمدوّنات التأريخية،

والتفسيرات عن الطبائع النفسية، وقيم أخلاقية، فكانت بحق تعبيراً عقلانياً عن طبيعة الواقع الاجتماعي والاقتصادي والفكري والروحي لذاك الإنسان، وأستطيع القول أن الوعي الأسطوري هو وعي لغوي بذاته، حيث يبرز الوجود حقيقة داخل حيز الزمان ومجال المكان، وأرى أن الأسطورة وعي لغوي بدائي في تخلقاته التأويلية لظواهر الوجود، وتأملاته الروحية الباحثة عن خلاق الوجود، ومدوّناته للحقائق المتشاكلة بينه وبين حركة الظواهر الطبيعية المعاشة، وأستطيع القول من باب الفرض، أن الأسطورة وعي لغوي بدائي اتخذ من الفرد دلالة تفسير أسرار الظواهر، وتعلل أعم الوقائع الطبيعية بوصفها قوى روحية خارقة غير عيانية تحرك الوجود، وتمثل بدايات المواريث العقلانية ذات الدلالة.

ومن نافلة القول، ليست بحوثنا في الوعي اللغوي إلا استنطاقاً للحقيقة، ومآلنا منها بيان تأثير الوعي اللغوي في الخلق المعرفي والجمالي، وليست دراسة تحليلية أو تطبيقية، لكنه يتعين علينا جميعاً ألا ندع واقعنا يسير على نحو يظهر عجزيتنا في استغوار الحقائق، بل ينبغي الإفصاح عنها بجرأة وأمانة في خدمة القضايا الإنسانية.

قد أجانب الحقيقة في قولي المشوب بالعاطفة، أن اللغة خبرة حادة تحفر مُغراً في الأعماق السوداء للذات الإناسية، وتضيئها كي تكشف خبايا النفس وتبعثها من الحضيض إلى ظاهر الوجود الحقيقي.

إن الوعي اللغوي يحررنا من أوهام عالقة في مخزون في ذاكرتنا الجمعية، ويعمل على إثبات أن الوجود حقيقة جمالية ثابتة، ويمكنني القول، أن وظيفة اللغة هي وعي الحرية لفهم معنى الجمال المتجلي في أفعالنا، ولا ريب في أن معظم أفعالنا متجلية في مظانات اللغة، وأن الوعي

اللغوي يتخلقنا في كل لحظة، وأن الوعي القيمي الجميل هو الذي يخلق اللحظات الجميلة المنسابة باطراد، يقول هنري برغسون (H. Bergson) /١٨٥٩- ١٩٤١/: "ليست ديمومتنا آناً يحل محلَّ آن، وإلا لما كان هناك غير الحاضر، ولما تحقق امتداد الماضي في الحالي"[1].

إن الظاهرة اللغوية هي بناء فعل لغوي يهندسه الوعي من خلال التجربة الذاتية التي تميز خصائص التعامل وأشكاله المفارقة لدن مختلف الأجيال المتعاقبة، وتحدد ملامح الوعي التاريخي لملكة اللغة وتقحمها في معترك الصراع القائم بين الذات التواقة إلى فهم محيطها ومواضيعها ونوازعها وبين ديمومة وجودها.

إن الإبداع من أجمل الأساليب الفنية الخلاقة في عقلنة الوجود وتنظيمه وفق رؤى متجددة ومفاهيم متخصصة تتعامل مع الظواهر والأحوال والمواقف، فالوعي اللغوي يمكّننا من فهم العالم وتملُّكه معرفياً.

تشير الدلائل التاريخية لظاهرة اللغة إلى كل مظاهر الوعي اللغوي وعلى مختلف أجناسها وأشكالها وأصنافها وقضاياها هي وقائع تاريخانية لتجربة إبداعية تشمل كلَّ المجالات الحيوية في النشاط الذهني (ثقافية، فنية، فكرية، روحية، معتقدية، اجتماعية..) لا جرم تخضع كلها لوحدة النسيج المعرفي المنظم والمنتظم في سياق بنائي يمتاز بخصائص مفارقة في التجربة المعيشة، وبفضل الرموز اللغوية استطاع الإنسان أن يضع مرتسمات معانية لحياته، وكيفية علاقته بالواقع وما فوق الواقع على نحو متجانس واعٍ.

إن وظيفة المنظومة اللغوية توفير كافة الأدوات والوسائل التي تكفل

---

[1]- هنري برغسون – التطور الخالق- تلخيص وتقديم بديع الكسم ص٢٤ – دار طلاس- دمشق.

تحويل الوعي الإبداعي إلى منظومة مفاهيم قيمية تخدم تنمية النشاط وتطويره بصورة تضمن تأثيره على تواصلية العلاقة مع الأشياء المتعامل بها.

اللغة رمز واعٍ دال إلى معنى محدد بذاته، ويراد منها التعبير عن حاجات الإنسان، وترجمة لأحاسيسه ومواقفه، علاوة على ما لها من ميزة اجتماعية وأخلاقية تمنح الإنسان القدرة على التعامل مع الواقع، والتواصل مع الناس. يقول جون كاروز: "يعكس الكاتب المبدع شيئاً حقيقياً في الحياة، وهو الذي يحاول أن يرى ويكشف للآخرين ما هي الحياة في نظره وخياله من خلال تجسيدها في الفن"[٢].

اختلف الباحثون والدارسون في تعريف اللغة، وتعددت الآراء، بيد أنهم لم يخرجوا عن دائرة التعريف الناظمة لكل رؤاهم المتقاربة والتي تشير إلى أن اللغة تعبير عن المعنى الحقيقي لوجود الإنسان، يقول "روي سي هفمان": "إن اللغة قدرة ذهنية مكتسبة، يمثلها نسق يتكوّن من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمع ما"[٣]، كما يُعرفها فرديناند سوسير /١٨٥٧-١٩١٣/: "إن اللغة نظام خاص من العلاقات والإشارات المعبرة عن الأفكار"[٤].

لا شك في أن اللغة، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتفكير العقلاني، الأمر الذي يساعد تلقائياً على تنمية القدرات العقلية في الكشف وزيادة المعرفة والخلق الإبداعي وتفجير ملكة المواهب الكامنة وتألقها، يقول "وليم جفونز": "ليست اللغة هي التفكير نفسه، وإنما هي آلته وأدواته".

2- جون كاروز- الرواية الأخلاقية- ص١٦٣- تر. الياس يوسف – القاهرة.
3- وي سي هفمان "اللغة والحياة والطبيعة البشرية" تر.د. داوود حلمي- الكويت.
4- فرديناند سوسير –فصول في علم اللغة العام- تر. أحمد كراهين- ص٤٥- الإسكندرية- أُلمان ستيفن "دور الكلمة في اللغة" ص٢١.

أنا أُخالف رأي جفونز، وأرى أن اللغة حالة انعكاس الوعي نفسه على جُدر الحقائق، ولعل اللغة ظل الوعي، وليست أداة تعبير عن تجليات الوعي، وأستطيع القول في أن اللغة نظام لغوي واع تحكمه جملة الوظائف الدالة يقوم على ممارسة مختلف أشكال الاتصال التفاهمي والمعرفي والثقافي، وأستبعد أن تكون اللغة وسيلة إيصال، وإنما هي وظيفة اتصال، ومعلوم لدينا أن الوعي الفني بكل أجناسه وأشكاله ورؤاه الروحية والفكرية والوصفية والفنية والتشريعات الوضعية هي تعبير صريح عن مستبطنات الذات المتبادلة مع الكوائن، يقول "هربرت ريد": "معرفة الوظيفة الحقيقية للفن هي التعبير عن الإحساس ونقل الفهم"[٥]. وأعيب على ريد في مقولته الآنفة ذكرها "نقل الفهم" وكان يحسن به قول "تبادل الفهم" كون لفظة "نقل" تعبير عن أن اللغة مجرد أداة أو وسيلة أو واسطة بنظرنا.

من خلال قراءاتنا لميراثنا التأريخي العريق الذي احتوى على جملة الأفعال ومنظوماتها ومدوّناتها ومنجزاتها، قد أبرز بجلاء لا نضير له أثر اللغة في نشاطنا الإنساني، وبيّن فوائدها ووظائفها وضروراتها، بدءاً من ظهور الإنسان البدائي الأول حتى إنساننا المعاصر، نقل في مدوّناته كلّ ما رواه خاطره وما جال في مخيلته ومخاييله، وما فكر به، وعجز عن التعبير عنه لسانياً، وقد أبرزت مفردات التخاطب والحوارات بين أبناء البشر أشكالاً وقيماً ومفاهيم كثيرة. عندما كان الإنسان البدائي الأول يجهل الطبيعة وظواهرها، خافها، لكن الخوف حفزه لأن يبحث عن أسباب هذه المخاوف، وشرع يفسر العالم الذي يعيش ضمنه، ويجدُّ في العمل لإيجاد أشكال عدة يتعامل معها، ولعل أول شكل تعاملي وعيوي له، كانت اللغة التي تمكّنت

5- هربرت ريد "معنى الفن"، ص٩٢٦، تر. سامي خشبة.

من تفسير ظواهر الواقع بتعابير جد بسيطة وساذجة، بيد أن إنسان ذاك الزمان قد هرب خارج إطار الواقع لما عجز عن إدراك محتوى الوجود، ولم يتمكّن من صياغة رؤية شاملة ومتكاملة عنه، فأرجع كلّ مظاهر القوى الطبيعية والجمالية والزمانية والمعرفية إلى قوة متجلية خارج حيز العياني، فعاش تعاملاً سلبياً، وعانى فراغاً موحشاً، وبحث عن توازنه النفسي والتأملي بواسطة تجليات روحية متعالية، ربط معرفته ومنفعته وإرادته وقدره بمجهول خارج الملموس والمرئي، واعتبر أنّ كل ظاهرة مجهولة في الواقع العياني، ترجع إلى قوة مجهولة في الواقع اللاعياني، لكن تطور الوعي اللغوي، جعل من الفكر البشري يتلمس حقائق في الواقع شجعته على التحرر من ربقة الخوف البدائي المتأصل في طيات نفسه، وتتقادح في ذهنه أسئلة ملحة، من أنا؟ ما هذا العالم الذي أنا فيه؟! وما علاقتي به، من خلقه؟ لماذا أخاف منه؟! فهل الهروب من الوجود ناتج عن عدم معرفتي بالوجود أم عدم معرفتي بذاتي؟ لقد أجاب الوعي اللغوي على هذه الأسئلة المُحيرة.

فمن خلال هذا الوعي المُستكشف أرى أن العودة إلى العالم جاء نتيجة منطقية لعودة الإنسان إلى ذاته واستكشاف أحلامه وهواجسه ونوازعه وتأملاته وطموحاته وعلائقه مع الواقع.

باتت أسرار الحياة شيئاً عقلانياً ملموساً عبر الوعي اللغوي، وليست وهماً خارجياً وأن كلّ تثبيت قيمة عقلانية في أي تخلق إبداعي هو تثبيت قيمة جمالية مفيدة في تجربة الحياة الجمالية التي يُفصح عنها الوعي اللغوي، وأعتقد بأن الحياة الإبداعية هي تخلقات تتماهى الذات الإنسانية في آثارها الجمالية، والوعي اللغوي أشبه بالحافظة التي تحتوي على فعل الذات المنتجة للحياة بتعابير جميلة مختلفة ومتباينة.

لقد استُخدمت اللغة صوراً مُجسدة على شكل رسوم جدارية داخل الكهوف التي قطنها الإنسان القديم، فنرى تشكيلات هندسية لصور حيوانات وطيور ونباتات وبشر..إلخ. ما لبثت هذه التشكيلات الصوريّة أن تحوّلت بعد مراحل زمنية إلى إيقاعات صوتية، ثم أحرف، فكلمات منطوقة بذي دلالات معانية، ولثراء المفردات الدالة، شرع الذهن الإنساني الذي يمتلك فضاءات رحيبة إلى استخدام اللغة في صياغات إبداعية فكرية وأدبية وفنية وعلمية..إلخ. حتى باتت الحاضن لكل القيم الجمالية النبيلة، ويجوز لنا القول، أن الإنسان وعي لغوي، من حيث أنه يملك طاقة ذهنية توليدية من المفاهيم والرؤى التعبيرية وقدرتها على خلق الفعل المعقد، ووحده المختص في إنتاج الرموز المعرفية، والمفصح عن القيم الجمالية، والمتوغل في كشف حقائق التخلف، والمتخلق للنصوص الرفيعة، والمكتشف للقوانين الوضعية الناظمة، وأخلص إلى أن ما لا يتخلقه الوعي اللغوي ليس بذي إنساني. وأرى أن لا فائدة البتة من نظرية تقوم على الفرض دون أن تقترب من احتمالات التصديق، أو تنطوي على موقف إشكالي، فالفرضية الميتافيزيقة التي يرى فيها أفلاطون /٤٢٧- ٣٤٧/ق.م أن الفكر الإنساني مكوّن من كم لغوي يسمح له في بناء نظام معرفي عظيم، فرضية تخالف حقيقة النظرية المعرفية في نظري، من حيث أن المعرفة ناتج توليد إبداعي تقوم به آلية الوعي من خلال ظاهرة العلاقة المنعقدة بين الوعي والواقع، من ذا يكون التوليد اللغوي للمعرفة حاصل توليد منظومات الرمز لمعاني جديدة يكونها الفكر، ويتكوّن بفضله، فلا سابق لفكر مكوَّن وتام، ولا سابق لمعرفة مكوَّنة وتامة في عملية التحصيل المعرفي، ولا يصح ربط الوعي العقلاني بمحدودية الطبيعة من جانب أحادي تتولى بدورها منح الفكر كلَّ منظومات المعارف

ومصاغات الفكر، والإبداعات الأدبية والفنية، أو تحديد قدرات الفكر على فهم الطبيعة، وإبقاء الوعي ضمن محدودية العالم الخارجي وارتهانه بحتميته كما يراه البعض.

فسر تشومسكي (Tchomsky) /١٩٢٨- / بنظريته أن الإنسان حر ولا يخضع لحتمية المثير الخارجي في توليد مصاغات الفكر، وأن الاطلاع على النظام المعرفي يستلزم دراسة البنية البيولوجية للفهم العقلاني، وعندي، أن العضوية الذهنية هي وعاء يحتوي البنى المعرفية المكتسبة عن طريق أقانيم المعطيات الخارجية التي يتعامل معها الوعي "الذهني" ويقوم بتخزينها كمنظومات مفاهيم معرفية، ومأتى حديثنا ينصب على نظرتنا في أن انبثاق المداليل واكتشاف القيم الأكثر حداثة ونماء من عمق تخلقات الرمز المتواكبة مع صيرورة الزمن من الوعي اللغوي المبدع. وقياساً على ذلك، يجدر القول، أن اللغة أصل التكوين المدني والروحي للحضارات الإنسانية، يقول "ماريو باي": "بزغ نور اللغة يوم وجد الشعور الاجتماعي عند الإنسان"(٦).

نعتقد أن اللغة ليست مطلقة ومتكيفة بذاتها، والشعوب الحية لا تنتظر لغتها أي متكوّن معرفي وجمالي وقيمي لتستكمل وظائفها وتلبي الحاجات الإنسانية بغية بناء حياة كلية تتوفر فيها ازدواجية الروح والمادة معاً.

إن كل أمة تفتقد بناها اللغوية، تظل أمة عضوية "جسدانية" مثلها مثل الكوائن القطيعية البهيمية، ومن ليس له بُعد لغوي، ليس له بُعد معرفي، وبالتالي ليس له بعد ذاتي، وتسوقه دالات غريزية وعفوية، أما الإنسان العقلاني فهو كائن لغوي بطبعه، لا يعيش اللغة فرداً وإنما يعيشها مجتمعاً،

6- ماريو باي- أسس علم اللغة- تر.د أحمد مختار عمر- ص٣٨- جامعة طرابلس- ليبيا.

ومن هذا المعادل يمكن إطلاق حكمنا على أن اللغة فن المثاقفة المدنية في مجتمع متحضر.

إن الوعي اللغوي هو القيمة العليا للتاريخ الإنساني، فزمان الإنسان مرهون بتجلي الإبداع العقلاني بوصفه خطاب معماري للحياة، فالوعي اللغوي ليس هو الحضارة المادية كمكان، وإنما هو الحضارة الروحية في كل زمان ومكان، واستطاع تاريخ الوعي اللغوي أن يستثمر التجربة الإبداعية لحساب سلطة العقل التي تخضع لمعاييره كل القيم المتحررة من كل المعايير الخارجة عن المنطق العقلاني.

إن ما يميز الكائن البشري عن الكوائن الأخرى وعيه اللغوي، ففي اللغة يتجاوز الكائن جسدنته فيرتقي إلى عقلنته، وتتوسع مساحة البعد الذاتي والموضوعي عنده على حد سواء، ونرى أن الوعي اللغوي بُعد مضاف إلى الطبيعة المشروطة بنظام محدد، ومحكومية قانونية أزلية، فالوعي اللغوي يتعامل مع اللامشروط واللاقانوني في حالات الحس والنزوع والسلوك والتفكير والمعتقد..إلخ. فيمكن القول أن اللغة انتصار الوعي على المحدودية، وتملك البُعد اللغوي لإطلاقية المعنى، وحسبنا تظل اللغة فارغة المحتوى ما لم تدخل معانيها معملية التاريخ وتحافظ على دوالها التفاهمي وتجليها الإبداعي بين الناس.

. أجل، تعامل الإنسان الأول مع محيطه منذ ظهور المجتمع الإنساني إلى ظاهرة الحياة الفعلية منذ أكثر من خمسين سنة خلت، فنمت وتعددت أساليب التعالم التي اصطلح العلماء على تسميتها بـ "المحاكاة" (Simulation) بمعنى، إنتاج وظائف تعبير وتفاهم مع الطبيعة، فاتخذت من التصوير للأشياء الطبيعية مادتها الرئيسة والأساس في البناء الدلالي للتفاهم، وما انبرت أن

ارتقت من تجربة اختزال الصورة إلى تثبيت الحرف "الرمز" (Code) عبر عمليات واعية معقدة، فصار إدراكاً حسياً مباشراً، فالقول، أن اللغة البدائية كانت صوراً (Pictography) كما دلت إليها الأبحاث واللقى والمدوّنات الأثرية والتاريخية، فهي علاقات بصرية عيانية (شكل، لون، خط، صورة..إلخ) وبالدراسة والتحليل المعمقين كشفت عن خضوعها لعمليات ارتقائية، فانعكست من لغة صورية عيانية إلى تصويرية جوانية جوهرية (Substantialis) ذات دلالات معانية (حرف، رقم، كلمة، مفاهيم...) طبيعي، خضعت بالضرورة إلى عمليات ذهنية انتقلت من الوعي الحسي الظاهري إلى الوعي الإدراكي الباطني.

دلت الدراسات العلمية إلى أنه تم إنتاج المفهوم اللغوي منذ حوالي ستة آلاف سنة فاتت، وتم الكشف عن حقائق تبين أن لكل كلمة دلالتها المادية أو الروحية أو النفسية أو الفكرية، أو الخيالية، أو العلمية، أو الأدبية أو الفنية...إلخ تعتمل داخل الذات، فيُعبر عنها بمفاهيم محددة، وتعتبر لغة المجتمع السومري الذي قطن أرض الرافدين (Uruk, Gemdat Nessar) في موقع الوركاء وجمدة نصر وكيش أقدم لغة إنسانية مثلت أنموذج مرحلة الأصول الأولى التي حفّزت العقل "الوعي" (Consciene) البشري إلى ممارسة النشاط الفكري الذي خلّف لنا مواريث ثقافية ولغوية عظيمة ما زلنا نتعامل معها، وترجع الإنسانية إليها كلما اقتضت ضرورات الحياة عبر كل الأزمان، يقول عالم اللسانيات البريطاني "ر.هـ. روبنز": "يبدو أن أول نظام كتابي معروف، وكان تصويرياً في البداية، هو نظام كتابة السومريين حوالي (٣٠٠٠) ق.م"[٧]. وبفضل هذه المواريث اللغوية الفنية، حدث في بدايات

7- ر.هـ. روبنز – موجز تاريخ علم اللغة- تر. د. أحمد عوض- سلسلة عالم المعرفة- ١٩٩٧- الكويت.

القرن العشرين تفجير لتجربة اللغة الإنسانية، فتم تطوير مفاهيمها النظرية والتطبيقية والمنهجية، فأنتجت علماً لغوياً تاريخياً مقارناً، له نساقه ومنظوماته ومداليله، ونوّع من الأساليب الإبداعية الشيء الكثير، وزاد من إنتاجه في مختلف المجالات التي اهتم بها العقل البشري في صناعة حضارة لها مدنيتها المتميزة.

والوظائف المدهشة للغة، أن أدواتها تساعد بشكل سحري على تصوير الأشياء وشحذ الخيال، والإسهاب في التعبير، والانسراح في فضاءات الخواطر، والانسراب في أعماق الأفكار، وقدرتها الذاتية على تنظيم طرائق التفكير، والتصعيد به نحو عوالم ذهنية رحيبة، الأمر الذي يُنمي قدرة العقل "الوعي" حكماً وفقاً لتطور اللغة وغناها في مختلف صور الخلق الإبداعي، سواء بسواء، يؤكد "تين كونديياك" الفيلسوف الفرنسي بقوله "إن اكتساب المهارة اللغوية ضرورة حتمية لارتقاء الذكاء".

قد لا أكون مغالياً أو منحازاً، لكنها الحقيقة التأريخية المثبتة بالوقائع والأدلة أن اللغة العربية بدءاً من أول نظام (Systeme) كتابة عند السومريين وحتى تاريخه، ظلت هي الأجمل والأكثر تعبراً إذا ما قورنت بلغات الشعوب الأخرى والأشد عراقة وتماسكاً وثباتاً وخلوداً، وقد افتخر بها الإنسان العربي لأنها تمثل مخزون ذاكرته وخزانة تراثه، ولغة علومه وآدابه وفنونه الموغلة في عمق التاريخ الإنساني، إنها بحق لغة أو أبجدية تخلّقت على ظاهرة البسيطة، ولعلها اللغة الوحيدة التي خاطبنا الإله بها في رسالاته السماوية، وباتت لغة إلهية مقدسة لا تُمس.

إن التخليق الإبداعي (Inventio) الذي ينتجه العقل الإنساني، مصدره اللغة دون أدنى ريب، واللغة هي المعدّل (Regulateure) العلائقي الذي تتواشج

بفضله القدرات الأربع الممثلة بالخالق والطبيعة والإنسان واللغة، فيتوجب إذن من خلالها توجيه المنظور العقلاني إلى كشف الحقائق المعرفية (Apstomolog)، ومنذ تمكّن العقل عبر محاكاته للواقع من صياغة معادلة لغوية صارمة حاولت تنظيم آلية الحياة عبر تاريخها الحافل بتخليق الحياة، فحولّت الإحساس بالعالم الخارجي إلى إحساس وعيوي داخلي، والعلاقة المتشاكلة في الأقانيم الأربع برزت نتيجة لنضوج الوعي وانتقاله من الظاهرة الحسيّة البدائية زمن "المشاعية البدائية" إلى علاقة مظهرية تدله في سعيه إلى حقيقة وجوده في محيطه المعاش. لكنها ظلت علاقة مادية خارجية لا تتسم بأي تصور روحي أو عقلي أو معرفي أو جمالي أو تحتي أو فوقي، ومع الارتقاء الزمني لأشكال العلاقة بين الذات والمحيط، بدأ الشعور الداخلي يضيء مساحات معتمة داخل الوعي المعرفي للإنسان الأول، ونتيجة لخبرة التعامل المادي الساذج، اكتسب معارف ولّدت لديه تساؤلات وإدهاشات حفّزته نحو اكتشاف الذات من خلال الواقع المعاش، الأمر الذي جعله يبحث عن أدوات التعامل مع الواقع، وكشف سرّانية الواقع، ومع سيرورة الزمن المعرفي المكتسب عرف كيف يكوّن إنموذجاً لغوياً ومعنى لغوياً ومعرفة لغوية عبّر بها عن حركة الظواهر الطبيعية، وأفصح عمّا تتنازعه من مشاعر ورؤى في عالمه الداخلي، وشرعت رحلة الانتقال (Circulation) من حالة التواضع المادي الوحشي إلى حالة القلق النفسي الإناسي (Enthropologigue) وهذه المرحلة الانتقالية أفرزت الوعي اللغوي الذي حطم التجربة الوحشية وانتقل إلى بناء تجربة إناسية راقية عبر الصيرورة الزمنية. لقد عثر على لقى ورسوم في المعابد والمقابر، وكانت على الأرجح نماذج تتصف بقدسية ترجع بالتأكيد إلى معتقدات دينية، وتبين أنها تصوّر كلّ المشاعر والنوازع الروحيّة السائدة لدن

تلك المجتمعات البشرية بلغة تشخيصية ورموز تعبيرية، وأكثر ما تدل إليه تلك النماذج، بيان دور الدين أو المعتقد الروحي في تشخيص (Sometise) الأدوات التعبيرية بوصفها لغة التفاهم، يقول "أندريه بارو": "إن فن الرافدين في الألف الثالث ق.م قد وجد في الدين مصدر إلهامه الوحيد تقريباً، فإذا حذفنا الدين قد لا يبقى أمامنا شيء منه".

وتتقافز في لجة الذهن كثير من الأسئلة القلقة القمينة في العرض والبحث، لعلها تشكل مداخل منطقية لمعالجة إشكالية جد معقدة، تتعلق بموضوعة العقل المكوَّن (Component) والعقل المكوِّن، أسئلة تطرح نفسها، هل نحن عقل مكوَّن أم عقل مكوِّن؟! أي هل الإنسان نتاج حياة نص مُبدَّع أم نتاج حياة ذات مُبدِعة؟ هل نحن نتيجة وعي مسبق الإبداع أم نتيجة إبداع وعي؟ أم أننا نتاج وحدة تلازمية متطابقة بين النص ومبدعه؟ سبق لي أن تطرقت إلى ذكر النشء الأول في عملية تكوين الحياة الإناسية وكيفية بدء تكوّن الوعي اللغوي، وأشكال التعامل التجسيدي مع الطبيعة عبر ما سُمي "بالمحاكاة" (Simulation) واستخدام أدوات تعبير تفاهمية معها، والمواريث العتيقة تدل إلى ما للوعي البشري البدائي من عظيم الأثر في تكوين عقل استطاع أن ينتج مفاهيم متعددة الأساليب (Method pluralism) فاتخذ منها نواميس وقيم وأعراف وتقاليد ومعايير في صياغة منهجية حياته العامة.

تبين من خلال البحث أن عمر الإنسان الحضاري قريب من عمر اللغة، وأن الوعي مرتهن بسيرورة زمن ارتقائي، غير أنه لم يرتهن الوعي باللغة كما خالها البعض، لكن فكرة هامة تلتمع في الذهن، فرزها منطوق البحث، وهي أن حالات الانفتاح الثقافي والمعرفي قد نجم عنها من خلال عمليات تلاقح الحضارات معادل أظهر تلازمية رصينة ووحدة جدائلية بين الوعي الإبداعي

وإبداع الوعي في أعم المفاهيم الأصولية (Canonigues) والحداثية (Modernist) المتراتبة.

شكل الوعي اللغوي في كل ما استفاضت عنه من سمات مشتركة، سواء كانت ثقافية أم فكرية أم روحية أم تأريخية أم أدبية أم خصوصية شخصية بـ "هوية" التي كوّنت ذاتها من خلال تجاربها الذاتية، وتأثرها بوجود الآخر، فكثير من الشعوب اعتصمت بحبل القومية أو الذاتية أو التفرد بـ "الهوية" وبفضل عامل اللغة طفق الفكر ينزع نحو إنتاج مفاهيم ومواقف ورؤى وقيم تؤسس مراحل تاريخية في حياة الأمم، ووجد الفكر ضالته في اللغة، وأيقن بأنها السبيل إلى تحقيق أغراضه على كافة المجالات الحيوية في بنى التحضُّر المدني. بلامرية، شكلت تجارب الوعي اللغوي خبرات معرفية وأحدثت ذاكرة تأريخية احتوت على كل أصناف القيم، وأستطيع القول في أن الذاكرة خزان الخبرات القيمية التي أنتجتها إبداعات الوعي اللغوي، وباتت تشكل جملة مواريثنا الخلاقة، وصار الوعي اللغوي الأول هو الأصل الثابت في عملية انتقال البشرية من الوعي البدائي الوحشي إلى الوعي الحداثي المتحضّر.

كانت معظم الشعوب والأمم، وما فتئت تتخذ من الوعي اللغوي أبرز مقومات وجودها الروحي والمادي، ولدت تحقيبنا المعمّق في تاريخ الوعي، وجدنا العقل هو ذلك الوعي الفلسفي والمعرفي والأدبي والأيديولوجي والفني والميثولوجي مؤطراً بوعي ديني شفاف -مجرد رأي افتراضي لا أجزم به- وتبين جلياً أن الموروث الإنساني بتعدد أصنافه، واختلاف رؤاه، وتنوع مواضيعه، وتباين قضاياه، تنخرط لميته في سلك ناظم يمثل عقد الأصول اللغوية لا جرم في أن النهوض العقلاني يتطلب وعياً لغوياً منفتحاً على حقائق ذاتية مستترة أو مسكوت عنها، فبقدر ما ينمو الوعي اللغوي الخلاق، تكبر الحضارة المعقلنة بنا ونكبر بها، وهنا لا أنادي بجعل حاضرنا برمته مرآة

تعكس أصول المواريث، ولا ما سلف بعجره وبجره يمثل وجودنا الحاضر، ولا التخلي عن مستقبلنا ومأتى قولنا، نرى أن ديناميكية التخلّق اللغوي لا تعرف المطابقة الآلية والتكرار الممجوج والانغلاق المطبق على الأصل، والاكتفاء بذاته، أو نفي ذاته، والتناقض الداخلي في مبناه ومعناه، والاكتمال في لحظات التخلّق الإبداعي والتأريخي. إن رؤيتنا مناداة إلى الانفتاح على لحظات الخلق الإبداعي، وتوليد اللحظات المعرفية والجمالية، فلا نفي لتابع، ولا تعصب لمتبوع، وبفضل الوعي اللغوي تنتقل المكوّنات (Components) الحضارية من طور إلى طور أرقى، وتتحوّل من حال إلى حال بديع.

كلّ شيء متحوّل عبر تجليات الوعي الإبداعي والوعي جملة معايير مكوّنة من نوازع الذات الإناسية المتطابقة مع حقائق الوجود، وفي اعتقادنا، أن كلّ الأفكار والمقولات والرؤى وما أبدعه الوعي من صور التعبير، سواء كانت موضوعاً أم خطابات أم رسوماً أم هياكل أم صنائع..إلخ فإنها من نتاج وعي إناسي مكوّن، وبطبيعة الحال، تتخلق عن سيرورة ارتقاء الوعي مكوّنات أخرى تُثري حياة المبدع وحياة الإبداع على قدر سواء، ومن الملاحظ، فإن لميّة النصوص والمقولات والأساطير التي تعامل به الوعي البدائي بغية فهم الحياة هي من صنع الإنسان، سواء كان شخصانياً أم مجتمعياً، فالذات متجسدة في المكوّن العقلاني الذي يرى الحياة من رؤى قيمية تحدد مسارات سلوكه وأنماط تفكيره ومعتقداته وعلاقاته ومستوياته الأخلاقية، بيد أن هذا المكوّن لم يتحجر كمستحاثة تعبر عن أثر ماض وانتهى، إنما يخضع لارتقاء وعيوي بالضرورة، من حيث، تتوالد لحظة الوعي الجديدة من لحظة الوعي التي سبقتها، أي يتولّد النص من ذات النص، ويحمل في مظانه خواص سابقة، ولا يتخلق الوعي اللغوي من "أناة" الذات المبدعة، وإنما يتخلق أيضاً من "أناة" النص المُبدَّعة، ويظل

الناموس الإبداعي منفتحاً في حركته الثابتة على الحياة الأخلاقية بما يتناسب ويتطابق مع حيثيات الواقع، فيتحد المكوَّن على المكوِّن، والذات على النص، والأنا مع الآخر.

إن كلَّ الحضارات المتعاقبة وليدة نص ذاتي يتضمن نصوص "أنا" الآخر، وهو ارتقائي منفتح، ساهمت في تخلقاته كل قوى الإبداع على مختلف أشكال التعابير الإنسانية.

صحيح أن النص من إنتاج مبدع خلاّق، لكنه يمتاز بخصوصية فردانية، ويظل محتوى النص من تخلقات الذات المبدعة، ولا مندوحة، أن النص يستقل عن مبدعه حالما يَفرغ من إبداعه، ويمسي بلا جدل ملكاً عاماً لسواد المتلقين الذين يتأثرون بقيمته ومفاهيمه، من حيث، يتم تأسيس المعاني على رفيع القيم الأخلاقية، فيتواصلون في التعامل معها عبر الأزمان وعلى مختلف الأجيال المتعاقبة، ومن المؤكد أن المبدع يعبر عن حالة ما، لكن ديمومة اللغة التي تؤسلب الأفكار والرؤى والمشاعر التي تتواصل مع الحياة هي التي تعبر عن القيم وتتفاعل عبر الأنشطة، والنص في اعتقادنا ليس الذي يعبر عن جماليات الأدب وفتون الفنون وعظيم الأفكار..إلخ، إنما هو الذي يؤثر فعلياً في عقول ووجدانات الناس، وما يحدثه في أنماط حياتهم وأشكال علاقاتهم وأجناس ثقافاتهم وأساليب أنشطة بهم.

إذا كانت اللغة حالة تعبير عن مكنون الذات ونمط علاقة في مبدعات النصوص والخطابات الرفيعة، فيمكن القول في أن الحياة الإنسانية نصٌ أو خطاب يستوي في دلالات ومعاني وجودها، وأزعم أن الإنسان بلا مرية حالة نص، من حيث أن الوعي اللغوي قدرة عقلانية تُفصح عن الحقائق الجمالية في العالم.

أما فيما يتعلق بالنص المقدس الذي تُستمد مقولاته من بنى الأحكام والمفاهيم المسبقة الخلق الإلهي، يظلُّ مرجعاً ثابتاً، لا تحوّل في منطوقه، ويتقيد في دلالة حرفية، وبنية نصية محكّمة غير قابلة للتبدل والتحريف، ومكوِّن للشخصية ونمط تفكيرها، ومعبر عن معنى وجودها، ولا تتزاح الذات عن

محدوديتها فتظل أسيرة لها ومتقيدة بأحكامها ومفاهيمها، وأن كلّ إبداع ذاتي أو شخصاني أو جماعي يستفيض عن محتوى الرئيسي ينبغي أن يتطابق مع منطوق أحكامه حتماً، وتجربة المقدس، وتجربة تاريخية متناسجة ضمن بنية كلية متداخلة ومترابطة لا تخرج عن زمانها بوصفها خطاب متعال، وتصلح في أي زمان ولأي مجتمع، والحجة فيها، أن النصّ المقدس يخص معتقد الإنسان ويستنطق مكنون الروح عنده تجاه واجد الوجود.

إن اللغة مرآة سحرية تكشف المستور عن قوانين الطبيعة التي عجز الإنسان الوحشي عن تفسير ظواهرها، لكنه عندما أدرك ذلك السر الخلاّق في الأبنية (Structure) الجمالية، طفق يُجنح صوب سرّانية الخالق، ومن البدهي، كانت اللغة أحد أهم العوامل التي شرعت إلى تأسيس المعتقدات العبادية التوحيدية، فتخلى عن عبادة الظاهرة الطبيعية المحسوسة في عالم الدنيا، ليرتقي بوعيه اللغوي والعقلاني إلى عبادة قوة خلاّقة فوق أو خارج الظاهرة (Hyperreal)، وأدرك أن الخالق الكوني مسكون في الذات كقيمة، بيد أنه روح تغلّف الكونية من خارجها، فخلولق الوعي اللغوي يصيغ منهجية الحياة الإنسانية، ويصبح المنظم والمقونن لحركة المجتمع، والسلطة التي تحافظ على حسن سير ارتقاءاته، كون الإنسان أرقى كائن على ظاهرة الوجود وأدرك بحدسه أن الضمان سيرورة الانتقالات إلى الأجيال المتلاحقة، والمحافظة على المواريث المنجزة، شرع إلى تأسيس علم اللغة المعبرة عن أنماط الوعي المعرفي، لإمكان فهم الواقع بكل أبعاده النموية (Genetics) وخواصه وقوانينه.

لا جرم في أن عمر الإنسانية الحضاري مرتبط بعمر اللغة، وعمر اللغة مرتبط بعمر الإنسانية، إنها ثنائية متعشقة ضمن "ميكانيزم" البناء الحضاري والمدني، وتأسيساً على هذه الثنائية التجادلية يمكننا القول، أن اللغة سر الحضارة.

اللغة بين الارتهان وتجليات التحول

يتوجب علينا تصويب رؤية خاطئة، زعمت أن الوعي المرتهن باللغة يظل أسيراً لها، وأود هنا توضيح ملابسات تلك المقولة لما لها من أهمية خاصة أثارت إشكالية معقدة في النقد اللغوي، ولا بد من الإشارة إلى أن اللغة وعي تعبيري سابق على اللغة من حيث أنها منظومة إشارات أو رموز أو تراكيب أو معان..إلخ. كما يتعين علينا التنويه إلى أن اللغة بحكم بناها تخضع بالضرورة إلى الارتقاء والامتداد فما دام الوعي يكشف سرّانية منظومة العلائق الحياتية بكل أبعادها، فبطبيعة الحال، تخضع اللغة إلى مرتهنات تطور منظومة العلائق، فالارتهان توليدي (Engendrement) المعنى في طبيعة تراكيب نُسجه، فاللغة تتناسل من رحم الوعي، والوعي يتناسل من رحم اللغة، إذ أن كلاً منهما يتخلّق من جوهر واحد، وحسبي أن الارتهان هو القانون الناظم للخلق الإبداعي، فإذا فرضنا مجازاً أن الوجود خطاب متخلق عن الوعي الإلهي، فإن الوعي مرتهن بالإله، وأن الإله مرتهن بما خلق، وقد ورد في الآية الكريمة: "يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير"[٨] الحق، العلاقة نفسها بين الإنسان وخطابه المرتهن به.

8- قرآن كريم – سورة الحديد – الآية (٤).

إن استخدام اللغة في تراكيب مبهمة لا تتصف بأية خاصية لغوية من حيث عدم توفر وحدة المعنى في المصاغ الخطابي، في حين ينبغي أن تمثل اللغة صورة الإنسان والطبيعة شكلاً ومحتوى، وليست أداة مُصنّعة من خارجهما أو مضافة على الكينونتين، ومن العبث اعتبار اللغة وراء العالم، فاللغة في مجمل وقائع الحياة مقترنة بالتجربة الحسيّة بذا تمنحنا بُعداً معانياً إلى جانب الصورة المعبرة عن الواقعة، وليس كل معنى واقعي رؤية مطلقة أو ثابتة، أو نهائية في المعرفة الجمالية، فالمعنى الدال عن الواقعة هو إعادة إنتاج لحظة جمالية دالة وقابلة للتناسلية، مما يجعلها على الدوام أمام الواقعة، فمن هنا كانت اللغة أمام العالم لا خلفه.

لا أعتقد أن اللغة تُحايث المتعالي، وإنما تحايث الخلق المسبق للمتعالي كون العالم خطاب استفاض عن الوعي الإلهي بكماله، بيد أننا نستنطق حقائق الحياة لبناء ذواتنا الصغرى في إهاب الذات الكونية الكبرى، وشعورنا في نسبية المعرفة الكونية، أننا ما زلنا في نقص معرفي للحياة، وبمعنى آخر، أن الحياة في نقصان مطرد، ولا يمكن الوصول إلى الكمال، فهذه نظرة ناقصة أيضاً، أما الوجه الآخر لهذه الرؤية، فيتطلب القول، أن الحياة في زيادة مطردة لمعرفة الكمال.. صحيح أن ما نكتشفه من حقائق في الحياة لا يمثل الكمال المبتغى، وإنما تنقصنا معارف جمّة، لكننا نضيف إلى هذا النقصان زيادة وليس إلى النقصان نقصاناً.

إن اللغة في حركة المنقوص والزائد قضية وعي ومكاشفة وتمويل في عملية البناء الإبداعي، فاللغة الفذة التي تفك رموز الأعماق التي تستبطنها الذاتين الصغرى والكبرى، لا تطرح لحظات الكشف التحليلي بطرائق مباشرة، كي تسمح لصور الإيهام أو الاستيحاء بالتحرك ضمن فسحة تتألف

بها في فضاء الإبداع وتنتشر بحرية. من أخطر ما تتعرض له تجليات التحوّل في لحظات الخلق الجمالي هو الاستسلام للقالبية (Stirotypes) والقاعدية في كلّ أشكال التعامل وعلى مختلف أساليب العمل الإبداعي والإنتاجي لأبنية الحياة.

إن اللغة بحدّ ذاتها ذاكرة تختزن في مظانها (Connotation) المعنى الدال التام ولا يعني التام موات (Mort) كما خاله البعض حين رأى الكمال موات، وغفل عن أن اللغة معنى يعبر عن جمال الدال (Signe) في تمامه، والكمال يعني استيفاء الشيء شروط وحدته الكلية (Totale)، واللغة في التعبير التام، كمال الشروط النصيّة أو الخطاب أو أية ظاهرة تعبيرية، والكمال جمال ينفي المنقوص القبيح والزائد المشوّه، صحيح لا تكتمل لحظات الخلق الجمالية في أي تعبير ما دامت كلّ لحظة (Linstant) تخضع للتوالدية، إلا أن الجمال فيضي بطبيعته، ولا تعني أن لوحة العالم قد كملت في الوعي الإنساني، وليس بصحيح أن الإله قد خلق الكونية في تمامها وأعدها للموات، وأن الحياة الكونية وما تحتوي آيلة إلى موات وعدم. إن العقل في أي زمان أو مكان ما في هذه الكونية هو في حالة إفصاح عن الحقائق الجمالية لتخلقات الحياة، وليس إلى موات، واللغة إزاء فلسفة الموات حالة متناقضة (Antonymie) تماماً، وتغدو معادلاً ثابت المعاني في الجوهر، متحركاً في صيرورة لحظات التحوّل في الشكل، لذلك نرى التأويل التحوّلي في وعي اللغة يشكل امتداداً توالدياً عبر زمن من لحظات الخلق الجمالي والمعرفي، وأعتقد أن زمن اللحظة لا يخرج عن إطار الواقعية، فما دام هنالك زمن، هنالك واقعة، وهنا يضطرنا المقال لأن نستعرض مفهومي المتجانس والمتنافر في القضايا الأعم التي تطرحها اللغة بوصفها أحد أهم الإشكاليات

الحساسة في عملية الوعي اللغوي، نظراً لأن الإبداع منتج مكوّن من مادة الواقع.

إن الواقعية اللغوية تخضع حتماً لقانون الجدل (Dialectgue) من حيث أن منشأ اللغة مستقى من أسس مادية تتنوع وتتجانس وتتنافر بحكم التنوعات البيئية والتوضعات الاجتماعية، وتلوّن الأجناس الثقافية..إلخ، وهنالك بنى موجودة في أنساق اللغة متشابهة حيناً في مجتمع، ومختلفة عند مجتمع آخر، لكن العقل والمخيال (Limagineitre) يلعبان دوراً متميزاً في مصاغات الخطابات المتعددة والمتباينة في الخصائص الجمالية والمعرفية التي تتسم بصفات شمولية كونية.

إن اللغة حالة امتدادية بين أصالة الماضي وحداثة الحاضر، وهي أشبه بمنظومة حلقات تمنح كلّ جيل شخصيته التاريخية في كل المجالات العلمية والأدبية والتربويّة والأخلاقية، وأعني هنا كلّ الأبعاد المعرفية والثقافية والصنائعية والروحية "المعتقدية" وأنماط التفكير وطبائع السلوك وأساليب التعامل وطرائق العادات وفضائل القيم الأخلاقية..إلخ. التي تجعل اللغة لسان حال التاريخ الحي الذي يُحدث الأمة عن ماضيها العريق في حال راهنها النميق، وأجزم أن اللغة أحد أهم الأنشطة الخلاقة في حياة الأمم، يقود د. جميل صليبا مبيناً فعالية اللغة في حياة الناس: "إنها مرآة الشعب، ومستودع تراثه، وديوان أدبه، وسجل مطامحه وأحلامه، ومفتاح أفكاره وعواطفه، ومركز كيانه الروحي، وعنوان وحدته وتقدمه، وخزانة عاداته وتقاليده"[٩].

9- د. عبد المجيد منصور "علم اللغة النفسي" ص١٠٥.

تنمية الملكات اللغوية حصيلة واتصال معرفي

لا أختلف قط في أن اللغة أنماط حيّة من الوحدات الصوتية والكتابية الفونولوجيا (Fhonology) وتتضمن إشارت "سيميائية" (Semantics) وحركات تعبيرية وتجسيدية وإشعاعية. "ضوئية" ومعادلات رياضية (رموز، أرقام..) وتخاطبات غريزية، كما هو الحال لدى الحيوانات والحشرات..إلخ. علاوة على كل ما ورد في الأبحاث والدراسات المنهجية في مختلف النظريات الدلالية الحديثة التي قامت بها الدراسات اللسانية (البنيوية) التي تبحث في الدليل اللفظاني المكوِّن للنظام البلاغي في خطابات النصوص الإبداعية من فودركيتس وجاكوبسن وتشومسكي وسوسيير ومن سبقهم من المفكرين العرب أمثال أبي العلاء المعري وأحمد الفراهيدي وعبد القاهر الجرجاني والسكاكي وغيرهم، ولست هنا بصدد البحث عن الأنماط الصوتية، بيد أنني رغيب في أن أخلص في مقولتي إلى أن اللغة الإنسانية أبعاداً تعبيرية عدة، إلا أنها بالحقيقة تخاطب بُعداً عقلياً أو وعيوياً واحداً، طبعاً مع مراعاة مستوى القدرة الذهنية للمتلقي، غير أن فوارقاً صارخةً بين لغة التخاطب عند الإنسان عنه لدى الحيوان، وفي جوانب عدة، منها، تعددية الذرائع والوسائل والإشارات والدلالات والرموز، ويرجع ذلك إلى قدرة الإنسان على التفكير

والمخيال والتحليل والكتابة..إلخ. أما لغة الكوائن الأخرى المتعددة الأجناس، فترجع إلى خاصية خلقانية، هي ثبوت السلوك التخاطبي المتسم بأحادية النمط –هذا بحث علمي له مناهجه ودراساته الخاصة- يقول "غاروسلاف ستتكيفتش" حول التوسع الدلالي في العربية الفصحى الحديثة: "أن الأديب المبدع يصنع الكلمات في إطار شعوري جمالي خاص، ويشحنها بطاقات هائلة من المعاني؛ ويُلبسها حُللاً جديدة من الدلالات.. لتصبح أوسع في دلالاتها وأغنى في معانيها"[١٠].

ينبغي أن نولي تنمية الإدراك اللغوي عند الطفل أهمية بالغة، ونسعى إلى توسيع مجالات البحث العلمي في مختلف الطرائق، كون الطفل يمثل القاعدة الأساس التي يتم ارتكاز البناء اللغوي القومي عليه، منطلقين من أن وعي الأشياء بالنسبة إليه تتطلب توفير كل الوسائل والمستلزمات الكفيلة باستمرار تنامي الفهم العقلي، والقدرة على التعبير اللغوي في كل مجالات الخلق وطرائق التفاهم، سواء في اللون أم الصورة أم الكلمة أم الحركة أم الإشارة أم الرمز، والمحافظة على إكساب الخبرات المعرفية والجمالية، يقول د. عبد المجيد سيد أحمد منصور: "إن ذخيرة الفرد الوافية من مفردات اللغة ومهاراته اللغوية عامة، دليلاً على سعة تفكيره ونمو عقله"[١١].

إن للأسرة والبيئة والمجتمع أدواراً رئيسة في تنمية القدرة على التعبير اللغوي، من جهة، والنشاطات والفعاليات الفنية والثقافية والتربوية التي من شأنها بناء الملكات التعليمية، وتنمية المهارات وإشباع المواهب، وإكساب العادات التي توسع مساحات القدرات الذهنية، وتعمل على تجذير وتعميق

10- د. أحمد معتوق "الحصيلة اللغوية" ص٤١.

11 - عبد المجيد مصور "علم اللغة النفسي" ص١٠٥.

الثقافة من جهة أخرى، يقول جون ديوي: "التربية عملية نمو متواصل، وإن غايتها زيادة القدرة على النمو في كل دور من أدوار الحياة".

على ضوء ما سلف ذكره، فإننا نلمس حقيقة مفادها أن الألفاظ التي يتم استخدامها في أحاديثنا وكتبنا التعليمية، وإبداعاتنا الفكرية والأدبية والفنية والثقافية والعلمية، وما إلى ذلك من صنوف التعبير، هي مجرد مفردات راقية في معانيها، تهذب النفس، وتلطّف الروح، وتوسع الخيال، وتثري الملكة الثقافية عند المرء، فيستوي العقل بها، ويستقيم الوجدان، وأبرز القول، أن اللغة أفخم القيم الأخلاقية الفاضلة التي يتعامل الإنسان بها مع الأشياء بثبات أزلي، وبناء على ما أشرت إليه، يتوضح بجلاء، أن للفصحى قواعد ثابتة المعاني، قابلة للتوسع المساحي، أما فيما يتعلق باللهجة العامية الغزيرة المعاني، الكثيرة المفردات، فيتبدى لنا أنها لا تختص بما تمتلكه الفصحى من ثبات في الأصل والاشتقاق على نحو سواء، وإنما تخضع تلقائياً للتغيُّر والاندثار مع مرور الزمن، أو توالي فعاليتها مع توالي الأجيال، وتظل مرتبطة بمجال مساحي أو فضائي ضيق (محيط، إقليم، زمن، جيل، قبيلة، شعب.. إلخ) ومن ذا فإنه من غير المعقول بأن لها قيمة أخلاقية أو جمالية أو معانية أو تأريخية تقبل الخلود والأزلية، وإن جاز لنا التشبيه، فإن الفصيح أقرب شبهاً بمادة "المومياء" تمكنت من تحنيط مواريثنا العريقة للحيلولة دون تلفها أو هلاكها واندثارها، وخاصة المعاجم التي تولت مهام تاريخية وحضارية لحفظ مفردات اللغة الأم وتصنيفها وتفسيرها واستيعاب الألفاظ الجديدة تواكباً مع متغيرات الزمن، يقول المستشرق "ب- ج- كاثيا" عن أصالة اللغة العربية: "إن الفصحى هي مفتاح تلك الكنوز الضخمة من الماضي العريق، ثباتها لا يوازيه ثبات أي لغة"[١٢].

12 – د. فاطمة الجيوشي "التربية والعادة".

د. أحمد معتوق "الحصيلة اللغوية" ص.١٧٠– سلسلة عالم المعرفة– الكويت.

أعتقد أن قصوراً عاماً واضحاً يتبدى في عمليات تنمية وعي وفهم مفردات اللغة، وضعفاً في التدريب على التعليم اللغوي، والنهوض به، مع العلم أن اللغة حاجة ضرورية للفهم والتفاعل والخلق، وأنها الوظيفة الأكثر تعبيراً عمّا يختلج الذهن من راعشات الفكر، ويعتلج الصدر من خافقات الوجدان، خاصة لدى التلاميذ والطلاب على مختلف مراحلهم الدرسية الذين يفتقدون إلى المصادر والوسائل والحوافز الكافية التي تحول دون تنمية ملكاتهم اللغوية والتعبيرية، وغالباً ما كانت تُدخلهم في حالات من التغريب أو العزل الأمر الذي يعيق فهم ووعي وتداول اللغة، ومما يؤسف له لوحظ أن في هيئاتنا ومدارسنا ومنابرنا وحواراتنا يتم تداول اللهجة العامية بدلاً من الفصحى، فيتعين علينا اتخاذ كافة الإجراءات والوسائل والمناهج والطرق التي تنمي وتوسع المجال الحيوي لحركة اللغة وتعميق الأبحاث في الحقول العلمية التي تعنى في دراسة الحالات الذهنية والنفسية لتلقي المعلومات والعلوم والمعارف التي تغني الحصيلة اللغوية.

لا غَرْو في أن اللغة أداة فعالة في دمج الطفل في مجتمعه، والتفاعل معه في وعي معرفي وجمالي وأخلاقي، وتكوِّن شخصيته القويمة، وتفتح آفاقاً وفضاءات شاسعة في مخاييله.

لوحظ مع تقدم المراحل الزمنية، أن شرخاً حاداً ما انفكت هوته تتسع في أشكال البنى اللغوية، وباتت هنالك فصحى وعامية، ما لبث أن صارت الفصحى لغة العلوم خاصة، واللهجة لغة سواد الناس عامة، فتم تداولها في الحياة الإنسانية، وتشير دلائل هذه الظاهرة الخطيرة إلى بروز فوارق غير متجانسة في تداول أشكال الكلام، فتميزت الفصحى بأنها لغة النخبة المترفعة التي تتعامل بلغة العقل "الأفكار" وأن اللهجة لغة البسطاء السذج الذين يمثلون عوام الناس،

فيتداولونها في أحاديثهم اليومية التي لا تخرج عن نطاق لغة "الأشياء"، الأمر الذي أدى إلى الحدّ من نشاطات البحث والتداول المعرفي، وتقلّص تنامي القدرات الفعلية على الإبداع والتوليد، وباتت بحق أهم إشكالية معقدة خلقت تحد كبير أمام مشاريع الخطابات العربية في البناء الحضاري القومي.

درجت العادة لدى الباحثين والمربين على اتباع معادل معياري يُخضع لغة الطفولة إلى التجربة التي تمزج الحاضر بالماضي، بحجة أن اللغة تتضمن مخزوناً تراثياً يربط الأجيال القديمة بالأجيال الحاضرة، وأنها توحّد كلمتهم، وتجمع فيما بينهم وجدانياً وعاطفياً وفكرياً وروحياً وعلمياً وقومياً في عُرى أزلية يقول "روبرت بولي": "هنالك ركنان أساسيان للاتصال مع الآخرين، أفكار يراد التعبير عنها، ولغة بواسطتها يتم نقل الأفكار مع الآخرين".

إن اللغة أشبة بجهاز تحكم يقوم بتفجير تجربة الخلق الفكراني عند أي صاحب موهبة إبداعية، ولامرية، دون اللغة يتعذر على أي مبدع خلاق، فتح مغاليق قريحته، وقد ثبت بالتجربة الفعلية أن الثراء اللغوي يساعد على بناء المشاريع الإبداعية المتآلفة، وصار من المؤكد، أن المبدع الذكي، هو من يمتلك ثروة لغوية، ويعمل على توسيع مجال اللغة من ألفاظ وتراكيب ومداليل تتناسب مع الحداثة وتتطابق مع الأصالة، وتغني الثروة اللغوية القومية، وتبعث الحياة المتجددة في نسيجها الخلوي، وبما يضمن لها التوازن مع زمن الأجيال المتوالية، والتعبير عن هوية الأمة في أصيل فكرها وقويم وجدانها. يقول د. عبد السلام المسدّي" "الإبداع إحياء للكلمة بعد نضوبها، ففي إحياء الكلمة بعث جديد للتجربة المعيشة في الذات والزمن"[١٣].

13 – د. عبد السلام المسدّي "الأسلوبية والأسلوب" ص١١٧.

قد لا أجد مسوغاً لئن نبحث في طرائق الممارسات التي تتبعها السياسات التربوية لدن أي مجتمع، كما لا يهمنا في هذا المنحى الخوض في الإشكالات المتشاكلة في خضم مشهديات بناء الحياة التربوية والثقافية والعلمية، رغم التفاوتات الصريحة في أنماط التجربة، إلا أنه يجدر التنبيه إلى قضية أساس في تجربة الخلق الفكراني، فإذ لم نكن نولي أهمية في تفعيل حركة إحياء حضاري من أجل مواكبة ما تقدم وتطور، فعلى الأقل ندعو إلى تفعيل حركة تنمية حضارية للحاق بما سبق، ونحن على دراية بما للوعي اللغوي من مساهمة خلاقة في سياق الحياة التربوية والمعادلة التعليمية، وما للتوجهات القومية والمناهج التعليمية والأنظمة التربوية في كل الخطط والبرامج والتشريعات والرؤى الاستراتيجية لتطوير الواقع التربوي والعلمي والثقافي في حياتنا الإنسانية، وندرك ما للغة من أثر حيوي في الارتقاء بالمستوى التربوي والتعليمي، ولا أجد هناك من ضير في الانفتاح على تجربة الآخر للتحرر من العزلة الإقليمية أو الانكفاء الفطري أو التعصب القومي، والتحوّل لإمكان تكوين إنسان تربوي لا يتجزأ عن الوحدة الكونية، فما ينتجه الوعي اللغوي هو رابطة انتماء حضاري في المفهوم الإنساني، متجرد من أية نزعة "أنوية".

تأصيل الحديث وتحديث الأصيل

قد نجد أنفسنا حيناً، لا نتفق مع رؤى عديدة، وأخص بالذكر رؤية مازالت مثار إشكالات فكرية وأدبية وفنية في العقل الحديث حول مفهومي التراث والحداثة، والمنادات بتأصيل الحديث، وتحديث الأصيل، وما إلى ذلك من مقولات متشاكلة، وما يندرج تحتها من آراء تجاوزت حتى المتون التراثية نفسها. سبق أن تعرضنا لمثل هذه الدعوات، وحاولنا تصويب رؤى وأبحاث تتعلق بهذا الشأن الهام، خاصة ونحن في عصر تفجرت به تجربة تخلقات الخطاب البلاغي والدراسات البنيوية لعلم النص، منها علوم اللسانيات في الدراسات "الابتسمولوجية (Episteomologie) و"الفينومولوجية" (Phenomologie) و"التفكيكية" (Deconstruire).. إلخ. نرى أن أمداء المواريث العريقة منسربة في أمداء الحداثة الخلاقة، وأن التعشق الامتدادي أو التلاقح المتعشق للبنى سينجم عنها ولادة تحمل صفة المورِّثين، نظراً لما للغة من خاصية تتصف بأن لها رحماً مفتوحاً لتفاعل المبنيات، من جانب، والتكاثر النموذجي لهُجنة النصوص المتطابقة أصالتها مع حداثتها من جانب آخر، فتتوالد التخلقات التي تتميز بخاصية مستترة لا يتم الكشف عنها إلا مستقبلاً بالرغم من تضمنها المورثين، ونجد المستقبل موجود كرؤى خيالية

في حوجلة الذاكرة، ولا أعتقد أن مستقبلاً جاهزاً في كل معطياته، كون المستقبل مجرد لحظات آنية تمثل لحظة حداثية، ولا يمكن للوعي استباق زمن التخلق الفعلي، ولكن الرؤية المستقبلية هي ضمان تواصلية الحاضر في الزمن الآتي.

ما انفكت لغة الخطاب الإبداعي تؤكد قدرتها على التمازج مع أنساق (System) التراث، وتنفتح على الوقائع المحدثة في سائر الأنماط، وتستوعب المنتج، وترتقي متجانسة مع كافة مستويات علوم الكلام (Paroleigue) والمتميز فيها لا يعني التغيير البتة، وإنما الارتقاء الذي يتجاوز الأساليب والطرائق التعبيرية السالفة، ويتقدم إلى أساليب أكثر حداثة وتوافقاً مع الوعي الحداثي، ويجابه ما يفرضه التطور من تحديات حضارية، يقول محمود المسعدي: "التراث ليس نصوصاً جامدة تحفظ في أمهات الكتب القديمة، بل هو الفكر الحاضر، يعيد الحياة للنص التراثي، ويزرع فيه روحاً جديدة"[14].

طبيعي تتوالد اللغة وتنمو، شأن البذرة التي تختزن الشجرة، والشجرة التي تنبت زهرة، والزهرة التي تتحوّل إلى ثمرة، والثمرة التي تختزن البذرة التي كانت، بمعنى، أن اللغة كالبذرة تتضمن دورة حياتها الأولى، وفي كل خطاب تفكك تراكيبه النصيّة تجد ألفاظاً ذات معان مفردة ترجع إلى أصلها الأول.

لا شك أن حياة كل بذرة مرتبطة بالواقع البيئي ومناخاته، وكل لغة مرتبطة بالواقع وأحواله، فلكل لغة جغرافيتها "بيئتها" ومساحتها التي تتحرك في حدودها "الوعي" وتضاريسها "الظروف" التي تميزها وترسم

14 – مصطفى الكيلاني "إشكاليات الرواية التونسية" ص٢٠٠ – تونس.

اتجاهاتها التي يسترشد الوعي اللغوي بها تجاه هدفه وغايته، وأنها متجددة كالماء المنساب الذي يروي ظمأ العقول، ويلطّف فضاء النفس، ويُنمي شجرة الوعي المتخلقة، وهنا يمكن القول، أن اللغة طبيعة ثانية منعكسة عن الطبيعة الأولى بواسطة مرآة الوعي، ولهذا نستطيع القول، أن كلّ ما تضمنته مواريثنا هي خطابات متناسلة بالفعل عن مخزونات بالقوة داخل رحم الوعي الإناسي.

أسئلة تطرح نفسها في بحثنا المعقد حول الأصالة والحداثة، فما هي الأصالة؟ وما هي الحداثة؟ وما هي وشائج الاتصال القيمي بينهما؟ وما هي متنافرات الخواص القيمية بينهما؟ فلو كانت في خصائص اللغة ثمة موات أو سكونية لباتت القيم عديمة الفائدة والنفع، ولفقدت سيرورة التفاهم وأفرغت معانيها. يقول المفكر الفرنسي هنري برغسون: "الذات التي لا تتغير لا تدوم"، ولو افترضنا أن الوعي اللغوي قد مارس كل صنوف الإبداع في زمن محدد، لكان حاضراً محدداً وكلياً ولأصبح الحاضر ماضياً ومستقبلاً في آن واحد، ولتوقف الوعي اللغوي عن الإنتاج، ولشُلت فعالية الحياة اللغوية في معظم نشاطاتنا، لكن تاريخ اللغة والوقائع تثبت أن اللغة حيّة وقابلة للتجدد، هي تخلقنا ونحن نخلقها في كل لحظة متجددة، ولعمري أن اللحظة المتجددة هي التي تخلقنا، ونحن الذين نتخلق بها بفضل الوعي اللغوي الخلاق، ولاسعة في أن تطور الوعي اللغوي أشبه بتطور الجنين، من حيث أن التكوين الأول مؤلف من خواص ثابتة في البنية "الهوية" العضوية، لكنه يخضع للتجدد والنمو في زمن صيروري، والأمر نفسه في الزمن اللغوي، انطلاقاً من أن الماضي يتخلّق لحظات قيمية حاضرة متجددة في الهوية اللغوية، وحالما تكون اللغة محددة سيكون الزمن محدداً، ونكون قد ألغينا رؤية المستقبل من فعاليات الحياة.

يرجع أصل الوعي اللغوي إلى منظومة أحكام تحدد قيم الأفعال التامة، ومع تطور المفاهيم الدالة واتساعها، تشكلت منظومات شاملة احتوت أنساقها على منظومات عقلانية تخص التقاليد الأخلاقية والقيم الجمالية والقواعد الحقوقية والأحداث التاريخية والقضايا الفكرية والأشكال الفنية والأجناس الأدبية، ومن البدهي، كلما تطورت اللغة ونما الوعي وتحرر من لحظة نسبية إلى لحظة نسبية أكثر حداثة في البنية المجتمعية.

الوعي اللغوي يحقق نزعة الانتماء القومي، ويحدد القيمة الحضارية لكل مجتمع، ويبعث القيمة من جديد ليتسنى للأجيال بناء ذاتها، وصفوة كل ما تقدم من قول، أن الوعي اللغوي أحكام قيم تنظم تقاليدنا الحضارية، ولا يخلو الأمر من إشكاليات عامة في موضوعات اللغة التقليدية التي تطرح المسائل العقلانية المنفتحة على جملة المعارف الأكثر حداثة، ومحاولة تحويل تجربة الوعي اللغوي من منظومة حافظة للأفكار القيمية إلى وعي تركيبي (Combinason) في البناء المعرفي، وتجديدي في المقولات العقلانية التي تتبع ديناميكية المراحل التاريخية للحضارات المجتمعية المتطورة، وهنا يتوجب علينا عدم فصل أية مرحلة تطور أو لحظة تطور حداثي في مساوق الوعي اللغوي ولا بين وعي بدائي "متوحش" ووعي حداثي "متحضّر"، فالوعي واحد في وحدة العقل الكلاني الذي يصيغ وحدة القيم برمتها، وحتى عندما يؤسس ويركب ويؤطر البناء المعماري لأنساق الفكر لا يعزل المقولات إلى وحدات، ولا يتجاوز فضاءه أو يقفز خارج طبيعته، ولا يؤسس نفسه من جديد، ولا ينفي ذاته، فالوعي اللغوي يتجدد دائماً، ويظل في حالة صراع تركيبي في المنظومة اللغوية، إنه كالجسد الذي يحافظ على "الهوا" العضوية، ويتجدد خلوياً، ولا يعني البتة أن هذا التجدد الخلوي يترك خلفه جسداً يؤول إلى موات،

وبالتأكيد، يظل الوعي اللغوي الجهاز الذي يغذي كلّ الأوعية المعرفية التي تحافظ على بقاء الذات الحضارية وتصونها من الهلاك والتلف، بتقادم الزمن، وأعتقد أن كل لحظة متجددة تجعل الواقع على ما نحن نفكر به عبر أي زمن تاريخي، وأن كلّ ما يحتويه الوعي القيمي تجارب جمالية منسرية في النسيج اللغوي، ويخطئ من يحسب أن بيننا وبين الطبيعة تطور مشترك، وأن كلّ مظاهر الوعي اللغوي والفني والأخلاقي والجمالي والروحي أملتها الطبيعة من خارج الوعي، نحن موقنون بأن كلّ ما يحتويه الوعي الشمولي المبدع هو تجربة جمالية تُسخر قوى الوجود بغية تحقيق حاجاتنا، وكل البنى الحضارية تجليات للوعي الخلاّق، وفهم موجوديتنا ووعي الفعل في عملية المحاكاة المشتركة مع كينونة الوجود، بذا، يغدو الوعي اللغوي صيغاً جمالية تركيبية تشاد على أسس قيمية تبني الواقع.

لا غرو في أن كل أنواع الدراسات اللغوية التي تبحث عن ماهيات الوعي هي عمليات إفصاح عن مستبطنات أنفسنا، منطلقين من قناعة أن جوهر الوجود هو الجوهر المعرفي للذات، بالرغم من استقلالية الوجود عن الذات.

لا يمكن فصل الحاجة عن الجمال، فالجمال ليس شكلاً فتاناً أو ذوقاً لذيذاً، أو متعة انتشائية فحسب، بل إنما الجمال قيمة معرفية، ومن غير الممكن فصل المتعة الجمالية عن الغاية المعرفية، على اعتبار أن البحث المعرفي في أنساق الوعي اللغوي هو البحث عن المتعة في الأبنية الفنية الجمالية، واستشفاف الحقائق القيمية الموضوعية في مظان هذه الأبنية.

الطبيعة بكليتها قائمة على قيم الجمال والجميل في نظامها الكلي، والبحث عن الجميل، بحث عن الكلي، وهنا يغدو الجميل غاية بذاته من أجل البناء الكلي، وأن كل أنواع وأشكال وأجناس الفنون التي يتناولها

الوعي اللغوي هي نشاطات عقلية روحية محضة، وأزعم أن اللغة التي تعي ذاتها تعقلن كلّ ما يستفيض عنها.

إن النقد الحديث أجج إشكالية ساخنة بين الأصالة والمعاصرة، فباتت قضية مقلقة، أشغلت منطق الخطاب الثقافي لدى مجتمعات لم تستكمل مقوماتها الحضارية، فقالوا عمّن يتحدث عن ثقافة الأصيل أنه متخلف ويجتر ماض متخلف، ومن يتحدث في ثقافة الحداثة قالوا عنه مقلداً ثقافة الغير وتبعي لها، وعلى وجه الخصوص ثقافة الغرب، فأين خطابات الوعي اللغوي بمستوييها الخصوصي والعالمي؟! وما هو شكل الانفتاح على ثقافة الآخر؟! على أية حال إن الذين يهملون ملكة التراث وثقافة الماضي هم من سفسطائي الحداثة المُحدثة الذين يرون في أن التراث هو ما تتخلقه وليس ما يتخلقك، وأن الثقافة ليست في اجترار ما سلف، وإنما هي تخلق حداثي مبتكر، وفي فرضيتنا أن الإبداع الحداثي هو بناء جديد، وتأكيد على موجودية جديدة، وأن الإبداع تحرر من وهم مواريث القيم الثقافية والمعتقدية الماضية منها والسائدة، وذلك لإمكان خلق قيم حداثية شكلاً وجوهراً، وقفزة لتحويل الذات والانتقال بها من حال إلى حال مغاير هو تحرر من التقاليد الثابتة، والانفلات في فضاءات رحيبة، هنالك، إلى حيث تكون الحياة المختلفة في مفاهيمها وأنظمتها، وترى المتفذلكون يناورون في رؤياهم، ويتناقضون في نظرياتهم عن الماضي، متنطعين بأنهم لا ينفون الماضي ويقطعون صلتهم بالتراث، وإنما هي استجابة لمعطيات الواقع المرتهنين بلحظاته واستباقاً للماضي.

أزعم أن الوعي اللغوي الذي أنجز كل اللونيات الإبداعية العظيمة عبر الماضي، باتت تمثل ذخائر مواريثنا العريقة، وأرخت لنا قيماً سامية،

أفصحت عن كل ما شاغل ما واشتغل به وعليه إنسان الماضي، ولا يصح القول في أن لميّة التراث الإنساني الزاخر بفائق عطاءاته، هو أشبه بحلقات تعشقت بعضها لتشكل امتداداً تاريخياً، إنما هو تراث توالدي وتمازجي داخل البنية الثقافية والحضارية، وعندي الثقافة وعي لغوي ابنة لحظتها الزمنية، وحسبي أن الثقافة في جوهرها قيم ومفاهيم تجاوزها الزمن لكان قد فسد الوعي، وحجم الفكر عن الإبداع، وما عادت هنالك لحظات متجددة، ولا صلُحت القيم الثابتة لكل زمان ومكان.

اتهم النقد الحديث، أن أنماطاً من الثوابت المتعالية التي تحكم الوقائع، تحول دون الانفتاح على ثقافة الآخر البراني، ولست أدري ما إذا كان دعاة النقد غافلين أم متغافلين، أن الوعي اللغوي قد طرح ثوابت قيمية أصيلة، أمست تقاليد إنسانية عليا، تأسست عليها صروح حضارية كبرى، احتوت هذه البنى الحضارية المتعاقبة في خصائصها الجوهرية أمشاجاً روحية دينية تحكمت العلائق الروحية الواقعية فيها على مقاليد قيادة المجتمعات، ولعلنا نتلمس بعض الحقائق في رؤيتنا "إن الرسل والأنبياء أكثر الناس جرأة على انتهاك حرمة المقدس ونقد المعتقد والثورة على الأوضاع الاجتماعية والطبقية والاقتصادية والعرفية السائدة في زمانهم، وعلى زمان من سبقهم، ولعلهم الأكثر جسارة في المناداة على تطبيق أحكام العقل زمان ذاك، فمن ذا يغدو الدين فعلاً تحولياً مدهشاً في سيرورة التاريخ المعرفي والأخلاقي والجمالي.. وأن تجريد الدين من بنية التراث، يعني تخليص العقل من محتوى التراث، وبالتالي سلخ العقل من سيرورة التاريخ بمعنى، لو نزعنا الدين من التراث لن يبقى لنا شيء"[١٥].

15 - انظر في كتابنا "التراث في العقل الحداثي" ص١٦٥ – دار الفرقد- دمشق.

إن التعبير عن مجمل الحالات الشعورية والنفسية والمعتقدية والأدبية والفكرية والعلمية والتأريخية التي تشاغلنا ونشتغل عليها هي تعابير لغوية في المقام (CONTEXTE) الأول، وبطبيعة الحال تتضمن الرعشة والرؤية (INSIGHT) والحس والتوتر والإرهاص والانفعال (EMOTION)، وفعاليات (ACTIVITY) البحث والنقد والقراءة والتجربة؛ وكل حالات الذات وتداعياتها، والنظر في أحوال تلك الأزمان التي تفصح عن لحظات وجودنا، وتمنحنا عمق الرؤية في أحوال عالمنا المعاش، وبقناعتنا الرصينة، سيبقى الوعي اللغوي متخلقاً ما دامت خواصه تتضمن إدراكاً للعالم، ولست أدري كيف يجرؤ متمنطقو الحداثة على نفي مواريثنا الجليلة، ونسف محتوى التاريخ المتمفصل (LARTICULATION) في كل شلو من بنى حضارتنا الإنسانية، وما شغل الذات الإناسية واشتغلت عليه؟! وأظن أن التراث ليس هو كل الحالات التي مررنا على ذكرها فحسب، وليس هو لغة أو ثقافة أو رؤية أو تجربة فحسب، وإنما هو الإنسان العظيم، وقضاياه الأعم في كل لحظة من لحظات التاريخ الإناسي.

لا ننسى أن تراثنا الإنساني مكوّن من نزوعات حداثية متوالية، وتطورات هائلة في نواحي الفكر والشعر والفن والمعتقد واللغة، ففي كل مرحلة أو عصر يأتي برؤى جديدة، وأن أية لحظة تخلُّق جديدة هي لحظة حداثية بحد ذاتها لا تتعارض في جواهرها المنطقية، اللهم إلا ما خلا في أشكالها التعبيرية، واللغة تمازج بين النماذج الحضارية، وتلاقح ثقافي بين البدائع التي أنتجتها الحضارات، وتمكّنت من حفظ ذخائرها كوعي لغوي أصيل، ولا أجد غضاضة عن ذكر مقولة ترتدي أهمية فنية ومعرفية في سياق بحثنا، فأرى أن التجاوز أو القفز على الماضي، ونفي التراث أمام ما تطرحه الحداثة هو نفي للحداثة نفسها من قبل ظاهرة أكثر حداثة منها، وهنا يلغي التأريخ نفسه،

والذات تلغي نفسها، ولا يعد هنالك من إبداع، ونمسي لا ماض لنا ولا حاضر، وأن كل شيء لا يتوالد ينقرض، وأن الحداثة بمنظورنا حالة تناسلية قائمة على النفي والتعشق، والتكيف والتمازج والترابط والانفصام، غير أن التخلّق الإبداعي حاضر دائماً في سيرورة الوعي اللغوي ومتساوق مع معطيات القيم الحداثية.

صحيح ليس الماضي بعظمته، وإنما بتخلقاته العظيمة، لكن لحظة التخلّق في زمن التخلّق هي التي الحضور الدائم الذي يجعل الذات حيّة خالدة، فكثير من الأفكار والأشعار والعلوم والفنون والقوانين والشرائع تخلّدت في ذاكرة الذات واستوطنت ثنيات الوجدان واستفاضت عنها روائع شكلت النسيج المعماري للحضارة الإنسانية ومدنيتها، وصفوة القول، أن التناصات في تخلّقات الخطابات الإبداعية عبر كل أزمنة الإنتاج العقلاني هي المتأصل المُحدث في الحداثة المتأصلة، ومن خواص البنى اللغوية القبلية، أنها تقبل بكل سهولة الانحلال في البنى اللغوية البعدية، وتتمثل المندمج في نسيجها الخلوي، بالنظر إلى أنها مكوّنة من أصل التركيبة البنيويّة، ومن طبيعتها المتفاعلة، وأن جميع ما يتناسل من دلالات وحقائق وقيم جديدة متمخضة عن هذا المنبع اللغوي الذي لا تستطيع أن تميز بين التخلّقات الحديثة المستلهمة للموروث الأصيل، كونهما مستبطنان في ثنايا الفكر والنفس الإنسانية.

التوليد اللغوي بين الثابت والمتحرك

يتوجب علينا معرفة ما للغة العربية من أهمية جمالية ونفعية، من حيث شكلها، بوصفها تركيبة حروف ترمز إلى شيء ما، وفي مضمونها بوصفها تركيبة معان لأشياء ما، وامتيازها عن باقي اللغات في كثافة مفرداتها، وتعدد صياغاتها، وعمق دلالاتها، وغزارة رموزها، وتباين إشاراتها، والمرونة في استخداماتها، وتشعب اشتقاقاتها، وتفاوت إيقاعاتها، واتصافها بالتوالدية، وقابليتها للنمو والتطور، وتمكُّنها من تزويد طالب العلم اللغوي من الفهم والتعلم والإبداع والاعتياد على تلقيها بسلاسة، أقرب ما تكون إلى الانطباع الحدسي المباشر، مما يوفر له ديمومة الشعور الواعي المتنامي في إدراك الدلالات التعبيرية، يقول "أرسطو" "الكلام تمثيل للخبرات العقلية".

ما أحوج اليوم الشعوب إلى إحياء ميت بنى لغتها، واستعمالها في معظم أبنية الكلام، وعلى مختلف المستويات العملية والنظرية، وأنه لمن أفدح الخطأ محاولة الحد من انتشار اللغة أو شل فعاليتها في أي منتوج إنساني، وأعتقد أنه من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى انحطاط حضارات الأمم، ظاهرة تفاعل اللغة، وجمود حركتها وعدم انفتاحها على لغة الآخر، يقول شفيق جبري: "إن

الألفاظ تابعة للحياة، تتحوّل بتحوّلها، وأن الصلة بين الحياة والألفاظ مستحكمة الأواصر"[١٦].

ساد اعتقاد وسط المشتغلين في النقد الأدبي، أن الأدب فن لغوي، ورأى أتباع المنهج الاجتماعي في دراساتهم الأدبية، أن الأدب لغة، ولا مرية في أن اللغة لا يمكن أن تتداول إلا في وسط اجتماعي، فما دام الأدب لغة، فإنه ليس فناً فحسب، وإنما هو قيمة في آن معاً، يعبر عن جملة المُثل والقيم والقواعد الأخلاقية والعادات والطبائع، ويؤرخ الوقائع الاجتماعية، ويكشف عن الحياة التربوية والمبادئ الأيديولوجية والقيم الجمالية، وتخضع أغلبها تحت ما يسمى بـ "سوسيولوجيا الأدب" (SOCIOLOGY OF LITERATURE) وعلى اعتبار أن الأدب فن لغوي تظل الرؤى محصورة في إطار الشكل بوصفه وعياً فنياً، وآية ذلك، بيان حقيقة أنه لا ينبغي من جرائها فصل الوعي الفني عن الوعي القيمي، فكلاهما وعي واحد، يعبران عن دلالة واحدة، هدفها الإنسان بصفته مخلوق اجتماعي قبل أي شيء، ومما لا يدع مجالاً للظن واللبس، فإن علاقة اللغة بالمجتمع دفعت علماء "الأنثروبولوجية" (ANTHROPOLGIGUE) إلى طرح موضوعة العلاقة الأثنينية بين اللغة والأمة والعرقية والقومية في القرن التاسع عشر، وتجلّت تلك في النظرتين الألمانية والفرنسية.

يرى "جوليان فانسون" الباحث والأستاذ اللغوي الفرنسي أن عِرق يعاني من فقر في ملكته اللغوية سيعاني حتماً من فقر في ملكته الفكرية، ويؤكد على أن أية أمة تحافظ على لغتها وتنغلق عليها عليها ولا تسعى إلى تطويرها، ستحافظ بالضرورة على تخلفها وانحطاطها، ويعلل أسباب اختفاء اللغة

16 - شفيق جبري "الألفاظ والحياة"، مجلة مجمع اللغة العربية، مجلد /٤٨/ ج٤ ص٧٢٧.

الباسكية دليلاً على صحة نظريته -على سبيل المثال لا الحصر- ونحن نناصر هذه الفرضية، ونعتبر أن الفقر اللغوي هو فقر في الإبداع وفقر في الثقافة والفن والجمال.

نحن ندرك أن لمفردات اللغة معانيها الدلالية الثابتة، بيد أن تراكيبها وصياغاتها وإيحاءاتها وسياقاتها تمنح بُعداً معانياً توالدياً جديداً لدى أي مبدع وعند أي جيل، فتراها مشحونة بأطياف أرواحهم المتوثبة، وزاخرة بأنماط تفكيرهم، وزاهية بألوان مشاعرهم، ومتميزة في سمات ثقافاتهم، ونبيلة في قيم أخلاقهم، ونزوعات معتقداتهم، وشآبيب عواطفهم، وطبائع أنفسهم، وسمو وجدانهم، وتباين تجاربهم، وخبراتهم الحياتية، فمن هذه الوجهة، أرى أن اللغة تغدو حيناً تعبيراً عن الحجة التي تثبت أصالة الأمة في قويم عقلها، والمعيار الذي يكشف عن مستوى ثراء ثقافتها، ويحدد القيمة (VCLLUE) التي تميزها في خلودها وتألقها، ومن نافل القول، حفظت النصوص الدينية والروحية أصالة اللغة، وحافظت على وحدتها اللغوية، واستمراريتها التداولية، والقرآن الكريم خير شاهد على ذلك، وتداولته شعوب تتكلم لغة مغايرة للغة القرآن، هذا، إذا ما قورنت اللغة اللاتينية التي بُعضت إلى عدة وحدات لغوية واشتقاقات مختلفة كـ "فرنسية، إنكليزية، إيطالية،... إلخ" قمين بنا بيان أبعاد اللغة وتأثيرها في سياقات الوعي اللغوي الإبداعي، أرى أن لكل لغة بعدين غير الأبعاد الأخرى التالية (زمانية، مكانية، نفسية، جغرافية... إلخ) فهناك بُعد ساكن يمثل ثابت المعنى، من حيث أنه مفهوم مجرد دال إلى شيء ما، وبُعد متحرك يمثل احتمالات معان عديدة بصفته يمثل جملة مفاهيم مركبة تحتوي على أكثر من دلالة إلى أشياء متواشجة في صياغاتها، يقول الجرجاني في مؤلفه "دلائل الإعجاز": "اللغة نظام علاقات تحكم وحداته

شبكة علاقات تمكننا من تحقيق الدلالة". من ذا نرى أن ازدواجية الساكن مع المتحرك ونعني، "اقتران الصيغ" في الخطاب النصي (DISCOURS) يشكل البنى النسقية (STRUCTURES) في مجمل المنجزات الإبداعية التي تتصف بمشروطية توالدية غير متناهية، فاللغة إذن مصاغ تركيبي من ألفاظ ذات معان تعبر عن رؤية أو فكرة مبدعها، وتتبع أساليب مختلفة، بيد أنها تخضع لشرط أمر هو أن الأسلوب (STYLISTIGUE) بُعد متحرك قابل للتوليدية بحكم الضرورة، فلا يعد لساكن المعنى المجرد في وحدة اللفظة وظيفة عقيمة في النسيج البنائي التوالدي، وإنما يظل خلاقاً في تعامله مع الدلالات المركبة في البنى النصيّة المنسقة، ومن هنا تغدو التوالدية في التعبير اللغوي نظرية عقلانية راقية، أما في التركيب المعاني (جملة، فقرة، نص) القائم على أنساق لغوية، فهي التي تحكم البناء النصي بكل أبعاده ووحداته، وتهيئ شيفرة الاتصال والتلقي، فاللفظة الواحدة دال تام لا يحتمل التأويل والتفسير لاتصافها في معنى تام محدود وثابت، لكن عدداً من الألفاظ المركبة تشكل جملة معقدة ذات معنى، قابلة للتأويل، ومعرضة لأن تفقد معناها في حال صياغة جملة مرصوفة بمفردات بشكل عشوائي، إذ يبقى اللفظ واحداً في معناه، وضرباً من العبث واللامعقول في مبناه، يقول "روبرت شولز": "إن النسق ليس موجوداً، مادياً محسوساً، لكنه قانون يحكم علاقات الوحدات داخل النص تماماً مثل قوانين الحركة"(١٧).

إن الكلمة معنى دلالي مستقلة بذاتها، ولا تتوالد كمفردة من ذاتها، ولما تتناسق في منظومة دلالات، فإنها تتخلق إلى عدة معان، فتؤلف قيمة، ويتحتم

17 - د. عبد العزيز حموده "مرايا مقعرة" ص٥٠١ – العدد /٢٧٢/ سلسلة عالم المعرفة – الكويت.

وجود روابط منطقية بين المعطيات المفهومية، أو تشكيلات بنائية تتحكم في حركة الانسياب اللغوي المتراتب داخلياً عبر مساوق النص، والانسياب يستغرق حكماً زمناً بين دالات المعاني والقيم أثناء التداخلات النسقية التي تقوم بوظيفة البناء التركيبي للنصيّة، وأن بناء المعاني مشيّد من شبكة توليفات معانية، فقيمة أية تركيبة معانية تقاس بنوعية وخاصية المتآلفات المشاركة في البنائية العامة للخطاب.

إن كافة اللحظات المتوالدة عن الخاصية الداخلية لبنية الخطاب هي أنساق متحوّلة بالضرورة ومتقيدة بنظام تسيير ذاتي، يقول جان بياجه: "إن البنية نظام تحولات له قوانينه من حيث أنه مجموع وله قوانين تؤمّن ضبطه الذاتي"[١٨].

يمكن أن نوضح رأي بياجه بشيء من التفصيل المقتضب، وأراه هنا يرمي إلى أن حركة الأنساق المتناسلة المتحوّلة وتفاعلاتها وارتباطاتها لا تخرج البتة عن نطاق محدودية النظام نفسه دون الاستعانة بعناصر خارج ذاتها، أي ضمن البنية النصيّة، غير أنها ما تلبث أن تتواصل تلقائياً لتشكل بنى إضافية متراتبة على البنى الأساسية، ومتعالقة مع بعضها بشكل مُحكم، وأن أي قطع لحركة البنية المتواترة، سيحدث خللاً في قواعد النظام البنائي، وتشويش التعبير، وتعطيل لآلية التنامي اللغوي في عملية التحولات، وتفقد المعيارية قيمتها في النسق البنائي.

في هذا السياق يتحتم علينا الإجابة على سؤال هام، هل اللغة معيار أم المعيار لغة؟ أعتقد لا تلك ولا ذاك، إن الوعي الجمالي الذي يتخذ من المعنى

---

18 - جان بياجه "البنيوية" تر. عارف منيمنة وأوبري – ص٨١- بيروت.

العقلاني نسقاً جمالياً يمثل القواعد، النماذج، الأعراف، التشريعات.. إلخ، هي بمثابة قيم تخدم أغراضاً أخلاقية حكماً، لا أنساق قاعدية تخدم أغراضاً جمالية ما كما يرى البعض. يتوجب أن نميز بني النسق الجمالي كقيمة معيارية، وممارسة النسق في حياتنا العامة، ويتعين في الآن نفسه أن نفرّق بين المكوّنات الأساسية لبنى الأنساق، فهناك نظام وشائجي في مصاغات النبى النصيّة، وأساليب فنية متباينة، وأصول بنائية، وقيم معيارية أخلاقية متماهية في مصاغات الخطاب، ومعان دالة وترميزات مستبطنة، وتوصيفات جمالية..إلخ جميعها تشكل أسس العمل الفني أو الإبداع الفني المتكامل، وصفوة المآل أن العمل الذي لا يحوّل مصادر الواقع إلى قيمة إبداعية معيارية، تحوّل الحياة وترتقي بها، عمل غير خليق لأن يكون فعلاً إبداعياً.

لا جرم في أن كلّ نص له شروطه ووظائفه التوالدية ضمن كل وحدة تعبيرية لها تأثيرها الخاص على المتلقي، وهذه الوحدات غير مترابطة ضمن النسيج (TEXURE) الكلي كما يُظن، وهذا ما لمسناه في الأبحاث والدراسات "الابتسمولوجية" (PPISTEMOLOGY)، وإنما هي في الحقيقة، توالدية من ذات النسيج البنائي الارتباطي، فالنص هو حرف وكلمة وجملة وفقرة تكوّن وحدة البناء النصي المتسق الذي يستطيع إيصال معانيه، وقد عُرّف النص (TEXE) في معجم اللغة واللسانيات بأنه "سلسلة من الكلمات تؤلف تعبيراً حقيقياً في اللغة"[١٩]. وقد رأى رولان بارت أن النص شبكة من الألفاظ المنظمة فيما يبينها تنظيماً يمكنها من إنتاج معنى ثابتاً. لا ريب في أن اللغة تتلاقح وتتثاقف لدن انفتاحها على لغة الآخر البراني، فتجدها تمتزج فيها، وتتمخض عنها صياغات

19 – ستروك هارمن "معجم اللغة واللسانيات" ص٣٣٠، لندن.

ومعان توسع مساحة اللغة وفضاء الذهن، وتزيد من علاقة التخاطب والتفاهم والإبداع والتحصيل المعرفي والخبرات والمهارات بوصفها ملكة وظيفية تنقل تجارب الآخرين، ويساهم التناص (INTERREXTUALITY) أي التضمين في التفعيل الوظيفي (PHONEMES) اللغوي في الإثراء المعرفي والانفتاح على الآخر، يقول عبد السلام المسدّي: "لا يعني أن الخطاب الأدبي يُحلّ لغة مكان لغة، وإنما يضيف اللغة الجديدة التي يولّدها إلى اللغة التي يخصبها ويولدُ منها"[٢٠]. لذلك فإن أية لغة لا تحمل في مظانها دلالات معانية وجمالية، لغة عقيمة ومشوهة وناقصة، فمن هذا المنطوق، أجد أنه من غير المعقول القيام بتفريق وفصل وظائف اللغة عن بعضها سواء كانت في أبحاثها أم استخداماتها أم إبداعاتها في المجالات (العلمية، الأدبية، الفنية، القانونية، المعتقدية، التاريخية، الجمالية... إلخ) وأعني ليس لذاتها فحسب، فللغة وظيفتان متواشجتان متفاعلتان بصورة جدلية، فتشكل الوظيفة المعرفية والجمالية وحدة كلية في الإفصاح عن المعنى (MEANING) التام.

اللغة تولّد الذات من عمق الذات نفسها، والتوليدية تواصلية بطبيعتها، تخضع للانتقال والتجدد، وكل تلك التفاعلات تأتي من عملية الاقتران اللغوي أو التزاوج اللغوي، سواء في عملية تطبيق المناهج التجريبية أم بروز ظواهر العفوية التجريبية، فالأبنية اللغوية بما تتضمنه من دواليل وتشريطات وقاعديات ومنتظمات، هي وعي موجود على نحو متفاعل ومدّوت، يتصف بقابلية توالدية، وأشير هنا إلى معادلة أجدها أدق وأبلغ خاصية في قضية وعي اللغة، فأرى عند ارتقاء الذات اللغوية ترتقي لغة الذات، وكلّ منها يُعرّف ذاته، ويشكل ذاته عن طريق الآخر عبر عملية جدلية بحتة، وتبين أنه كلما

20 – عبد السلام المسدّي (الأسلوبية والأسلوب).

تفصح الذات عن مظانها، تفصح اللغة عن ذاتها عبر العصور، وتظل محتفظة بأصولها وجذورها بالرغم مما طرأ عليها من تغيرات وإضافات وتطروت، فأغنت الوعي الذاتي واغتنت به، والقول الأساس في حركة مزواجية الإفصاح الذاتي، يبدو أن محور الكلام يرتكز على قاعدة أن اللغة أداة مصاغ المعنى، والوعي هو الناظم الرئيس لتماهي (IDENTIFICATION) المفاهيم المنطقية في بنية الخطاب، ويمكن القول، أن اللغة جوهر المعاني القيمية التي تخص الإنسان بوصفه كائن عاقل.

إن السلوك الغريزي الذي تقوم به الشحرات أو الحيوانات أو النباتات على وجه العموم تستند إلى عقل محدود مسبق الألوهية غيره عند الإنسان العاقل، فللسلوك الغريزي معنى ثابتاً في دوال التخاطب، لكن للسلوك العقلي متحركاً في دوال التخاطب، ومن خلال الرصد والمقارنة لأشكال التخاطب، فإننا لا نلمس في المذوت الغريزي أية تجربة (ERLEBNIS) معاشة، أو تغيير أو تطور على خلاف ما نجده في المذوت العقلاني الذي يخضع للتطور والتغير في طبيعته التوالدية.

لا مندوحة في أن المعرفة حقيقة بذاتها، والحقيقة تظل دائماً جمالاً حقيقياً، والكلمة في كلا الحالين، معنى دلالياً معرفياً كمحتوى، وصياغة جمالية تشكل، تعبران عن قيم جمالية نبيلة بحد ذاتها، وتجدر الملاحظة، أن وظيفة اللغة تجسيد للأفكار التي تتخذ أشكالاً صورية انطباعية على جُدر الذهن، والمكوّنة من جملة الأفكار النظرية القابلة للتطبيقات العملية، فيمكن القول، أن اللغة انطباع ذهني للصورة ينتجها التفكير العقلاني ثانية، ويجسدها بأساليب تعبيرية مختلفة، وينبغي فهم موضوعة هامة، أن اللغة لا تمنح المبدع الأسلوب (STYLISATION) المتميز، وإنما الأسلوب الذي يُطوّع اللغة

على الإبداع، ويسلك طرقاً متميزة في صناعة لغة الإبداع وإبداع اللغة على نحو سواء، وحركة تنامي الأسلوب، ضرورة تستدعيها طبيعة التطور، ولا نطلق على الأسلوب صفة إبداعية ما لم يمتلك إهاباً جمالياً مثيراً، وأزعم أن الأسلوب يظل خالداً ما دامت اللغة تمثل هوية الإبداع لدى المجتمعات الإنسانية على مختلف مللها ومشاربها.

يقول المفكر المعتزلي بُشر بن المعتمر مبيناً درجة الرقي اللغوي المتداول واللازم اتباعه عند كل مبدع "أن يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، وأقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات"[21].

وحري بي طرح مسألة يحسن الأخذ بها لدى المشتغلين بالنقل والترجمة، من الملاحظ، درجت العادة على تضمين مناهجنا وأبحاثنا ودراساتنا ومخاطباتنا الإدارية والإنتاجية والتجارية..إلخ، مصطلحات أجنبية غير معربة، وكأننا ماضون إلى عولمة (MONDIALISTM) لغتنا باستخدام لغة الغير الآخر، ولما يلوح لي أن محاولة موجهة تتعمد طمس اللغة القومية "الأم" واتباع لغة البراني، خاصة بعد ظهور وسائل الاتصال المدهشة –آمل ألا يفهم من كلامي أنني ضد الانفتاح على لغة الآخر وتداولها في جلى ما يتناوله الوعي اللغوي- لكن أمراً لازماً يتعين اتباعه والتقيد به، أنه عند تعريب اللفظة يحسن ذكرها وتدوينها حسب الأصل واستخدامها في قاموسنا اللغوي، وتداولها في مجال اختصاصها، وحسبي أنه إجراء صحيح، ينمي لغتنا، ويُصعد الأنماط التعبيرية على مختلف المجالات الإبداعية، ويجدر التنويه إلى أن التزاوج بين اللغة ووسائل الاتصال المعلوماتية (COMMUNICATION) أثبتت أن اللغة العربية قابلة للتكيّف (MIMETISME) مع المعطيات المعاصرة، وليس صحيحاً، ما قيل عن أن التطور التقني

---

21 – الجاحظ "البيان والتبيين".

يُلغي أداة اللغة كما وقع في ظن المهتمين في النقد التحليلي، لكن التجربة المعرفية التقنية (TECHNE) أثبتت بصورة قاطعة أن التطور التقني يُغني اللغة ويفعّلها ويمنحها عمقاً عقلياً ومعرفياً وجمالياً، ويُرسخ ثوابتها، ويُحفّز قابليتها على التعبير.

الجدير في حصيلة ما سبق الحديث عنه، أن اللغة حصيلة مهارات ذهنية واعية يجري اكتسابها بالتعلم عن طريق ممارستها والتداول لها، بيد أنها تفقد حضورها وفاعليتها وتألقها كلما أُهملت، وهي أقرب شبهاً بالأعضاء الحيّة، يصيبها الضمور حال تعرضها لنقص تروية، وفي هذا المقام أود أن أُحذر من فقدان القدرة على التخاطب، وخاصة لدى الأطفال، الأمر الذي ينجم عنه نقص الحصيلة اللغوية التي تحول دون قدرتهم على التعبير، فالبعض يميل إلى الانطواء والانعزال والتردد والخجل والخوف، وما إلى ذلك من ضروب المشاعر الإحباطية وبالتالي يفقد التواصل الاجتماعي والإنتاجي والإبداعي، وحيناً يفقدون التكيّف مع الواقع، فتنهار تجربة التعامل مع الحياة والآخرين.

من خلال هذا السياق سأذكر وظيفة حساسة اعتمدتها تجربة التحليل النفسي في تشخيص الأمراض النفسية والعقلية عند أي مجتمع حضاري ما عبر التاريخ الإنساني -لا يتسع مجال البحث للإسهاب في هذه الموضوعة المعقدة.

إن الدفاع عن اللغة القومية التي تعتز بها شعوب هذا الكوكب الجميل، هو واجب وضرورة، وأخص اللغات العربية، باعتبارها لغة السماء ولغة الإنسان الذي صنع أعظم الحضارات التي بوأت الإنسان مكانة سامية وراقية ومترفعة على كافة المخلوقات قاطبة في العلوم والآداب والفنون والعمران والأساطير والمعتقدات، ولأنها اللغة الأجمل والأقدر على التفاهم، ولأنها لغة التاريخ الغابر والحاضر.

إشكالية الوعي اللغوي بين التحصُّن والانفتاح على الآخر

إن اللغة المعرفية ترتقي إلى قمة الصوفية لما تمتاز به من خصوصية التفرد بالتجسيدية والتشخيصية الدالة، وتتماشج أحاديثها مع أُحاديات الآخر، وأن هذه الأُحادية المُحدثة تمتشق خصوصيتها من عمق الكلانية للدال على الإنساني الشمولي، فيؤسس الدال مفاهيمه على نحو معياري أصيل وشامل، يتغاير في صورته وأساليبه وطرائق التعبير عنه، غير أنه يتوافق ويتسق في دلالاته الجمالية والمعرفية الفاصلة التي تعبر عن معنى وجودنا الطبيعي والإنساني على حدٍ سواء، ونتعامل بها بوصفها قيمة كلانية تختزن في ذاكرتها جلّى المعاني الحضارية.

للمعاني اللغوية مضامين نفسية تتعلق بشكل وثيق بعلم النفس، والخلق الإبداعي، والنقد التحليلي، والرؤى في عمليات الإنتاج العقلاني، فيتم الحكم عليها ظاهرياً من الجانب الفني، وباطنياً من خلال سبر الأعماق النفسية السيكولوجية (SICOKOLOGY) للمبدع، خاصة عند إسقاط الحكم الجمالي على الأثر الفني في البناء المعماري بآلية (علم نفس اللغة).

للغة مستويات متكاملة في البناء النصي، تتناغم في وحداتها، وتتعشق في هياكلها، وهذا التجانس (COHERENCE) الشفاف في الوحدة العضوية للنص

رغم تعدد الأبعاد، فإنه يلفظ الجمال من ثناياه بفضل حركة آلية "ميكانيزم" الصياغات اللغوية التي تستبطن جملة متعددة من الإيحاءات (CONNOTATIVE) الفكرية والنفسية والإمتاعية، فيمنح النص أبعاداً (DISTANCES) إضافية من خلال تحطيم قالبية المفاهيم المؤطرة ضمن أي مستوى، وهذه العملية تُخضع المفاهيم إلى تحليل رموز تجربة الإسقاط الدلالي للوعي الفني الذي يمكننا من توصيف النص جمالياً وفق أحكام قيمية صرفة، يقول سعيد يقطين: "النص وحدة لغوية"[٢٢]

إن استجلاء كُنه المفاهيم اللغوية، واستقطار ألغازها التي تفرزها حوجلة الوعي العقلاني، هي إفصاحات عن جملة أنماط السلوكات "البسيكولوجية" (PSYCHOLOGES) التي نستطيع بها فهم الحياة بكل فعالياتها، ولنتمكن من إعادة بناء ما أفسده تاريخ التعامل اللغوي، منطلقين من قناعة أن اللغة تملك رؤية (INSIGHTHVOYANT) في فهم الحياة، وتنتج قيماً معيارية في التعاملات التي تفصح عن القيم الجمالية التي تؤسس عليها الحقائق، ولإمكان التصدي للتحديات الفكرية والنفسية والروحية والتاريخية والفنية والعلمية والإبداعية.. إلخ وعند كل لحظة متجددة في سياق الزمن، تجد اللغة نفسها مسوقة تلقائياً بحركة تاريخية الأحداث، لإمكان بلوغ مستوى أرفع وأنبل في الحياة الإنسانية، ويرجع سبب ذلك إلى أن اللغة تتناسب مع الواقع الطبيعي الأصيل الذي أنتجها ولا تخرج عن إطاره، فهي حاصل تعشق النفس والفكر والوعي والمشاعر، ولنسمها ما نسمها، المهم أنها تنسجم مع الواقع المحيط بنا بافتتان.

لا يستطيع النقد التنظيري تشخيص الوعي اللغوي بتعريف أو كيفية أو

---

22 - سعيد يقطين "انفتاح النص الروائي" ص١٦ – الدار البيضاء.

صورة أو فعل أو دلالة أو معنى في مقولة محددة وثابتة ونهائية، فالوعي فضاء لا جهات له ولا سبل ولا مستويات ولا سطوح ولا أعماق، عالم رحيب لانهائي، لكننا نقول جوازاً أن اللغة وظيفة معرفية واعية تعكس حالة الوجود وفق أنساق من المفاهيم المعانية والقيم الجمالية، واللفظة أو المعنى في اللغة، ليست محددة المفهوم، فهي ناتج الوعي "كذات" أو الطبيعة "كموضوع" فحسب، إنما هي واقع موضوعي تفرضه الأحوال الاجتماعية والعلمية والثقافية والنفسية والفكرية والمعتقدية، لذا، وبالقطع، لا تنحصر اللغة في حيز تأملي خاص، بل تجاوزت فعاليتها إلى مدارات علمية تخصصية بالغة الدقة، ولا نغالي إن قلنا، اللغة هي المؤسسة العامة لنظام فكرنا، ومن الصعوبة بمكان تجاوزها أو محاولة تنصيب الذات مجازفة فوق إهاب اللغة وخارج مداراتها، فهي سلطة تتحكم في أنماط مقولاتنا وتعابيرنا وهواجسنا وإلهاماتنا، وتضعنا على الدوام في موقع النقيض أو المتطابق رغماً عن إرادتنا.

إن اللغة تحصّن نفسها من كلّ الاقتحامات والخروق، إذ أنها تحمل في تلافيف نسيجها البنائي مناعات قادرة على دحر الدخيل المتنافي مع طبيعة تكوينها، ولديها قوة ردع أي متلق خارجي متعكسة وترده متجنبة مؤثراته، لذلك تتملك قدرة ارتدادية لكل ما لا ينسجم مع طبيعتها، وقدرة احتواء واستيعاب وصهر كلّ ما ينسجم مع طبيعتها، وهذا ما يجعلنا نرصد خاصية التفاعل بين اللغة والمتلقي مهما كانت طبيعته أو صفته، وعلى الأرجح، لا تتماهى اللغة في الذات، وإنما الذات تتماهى في اللغة، الأمر الذي يتخلّق عنها أثر جمالي ومعرفي يمثل ماهية مبدعها، فيتشاكل الوعي الإبداعي مع الحياة ويتعامل مع وقائعها، ويبقيه على الدوام حاضراً في سيرورة الزمن، ومتوحداً ومتوافقاً ومتواصلاً مع نفسه والواقع.

إن الوعي اللغوي بحث الذات عن نفسها، وتحررها من الاغتراب عن ذاتها ومحيطها، إنه وعي اندماجي بين الذات وعالمها لإمكان معرفة كيفية التطابق بين الهوية وموضوعها الخارجي، واللغة ليست أداة مسبقة الصنع، ثابتة الحجم والشكل واللون، إنها وعي إنجابي مرتبط بفعالية التجربة المتشاكلة مع محيطها، ولا تعني ظاهرة تماهي الذات في اللغة واندماجها انصهاراً تاماً فيها، لأن في ذلك إفراغاً للحرية من جوهرها الإناسي، فيتعين أن يؤسس الوعي اللغوي على إقرار بات يتعشق حريتين، حرية اللغة وحرية المبدع، فوقتذاك تصبح حرية الإبداع متجاوزة حدود الخاص المنغلق إلى فضاء العام اللامحدود.

ينبغي أن نتلمس روح اللغة بالفكر المعمق لإمكان تحريرها من أغلال الزمن، ولفسح المجال أمامها كي تتجاوز نفسها، ومن المفروض علينا الإشارة إلى مسألة جدُّ هامة تتعلق بنفي أو إثبات ما إذا كانت اللغة وراثية، وأن المرء لديه القدرة الفطرية على اكتسابها أم عدمها، فنرى في هذه الرؤية التي تناولتها الأبحاث والدِّراسات حتى العلمية منها قد أكسبت الاعتقاد عندي أن الحياة متجلية (STRUCTURELLE) في ذاتها، وأن اللغة هي التي تجعل العالم يتجلى فينا، لعمري، لولا اللغة لما كانت الحياة بهذا التغني الرائع، وهذا التعبير الجميل، وهذا الفهم القيمي الراقي، وبالفعل، كانت الحياة رؤية موحشة كئيبة، واللغة علم إناسي بحت، يُعنى بجوانب تجدها أشد التصاقاً بحياتنا الجمالية والنفسية والمعرفية والأخلاقية، ويمكن القول: أن علاقة اللغة بالوعي قضية متأصلة (ORIGINAL)، وليست مسألة عارضة في رؤيتنا الشمولية للعالم، لذلك فإن الوحدة العضوية المتناسجة بين اللغة والوعي العقلاني تستبعد حكماً رؤية تقرّ بأن اللغة قدرة على تحديد الفكر، أو أن

الفكر قدرة على تحديد اللغة، وهذا برأينا ينسف مصداقية معادل التوالدية في مصاغات البنى الإبداعية وتوافقية أنشطة الوعي المتجلي في الإفصاح عن مكنون الجمالي في الذات الكونية (COSMOS)، والذات الإناسية على نحو تبادلي (LALTERNATIVE) متناغم، وحسبي أن اللغة مشاركة للعقل في خواصها وطبيعة وظائفها.

إن اللغة علم الثقافة الإناسية التي يتواصل بها الناس لتحقيق حاجاتهم، يقول ابن جني: "إن اللغة مجموعة أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم"[٢٣]. لكن الكتب السماوية قد آلفت ما بين هذه الأقوام فكرياً وثقافياً ولغوياً، وكان الدين المحور الناظم الذي يجعل الفكر يدور في حركة منتظمة حوله، وقد استفاض عن منزلاته الروحية علم وفن وأدب ودين وفقه وتشريع وأحكام وأعراف وتأريخ أبرزتها مصاغات لغوية إبداعية بلورت الشخصية المجتمعية، ونقلتها من متحوّل بنيوي إلى متحوّل أشد دينامية وتعقيداً. يقول عبد القاهر الجرجاني: "إن القرآن مُعجز بالنظم، وأن بلاغة الكلام لا ترجع إلى ألفاظه، وإنما إلى ما بينهما من ارتباط"[٢٤].

فمهما يكن من أمر، فإن الحياة اللغوية بكل أشكال وظائفها وفعالياتها وتحولاتها وأساليبها ضبطت وحدة الفكر والثقافة المجتمعية وحصّنتها من التفكك والتبعثر والتشرذم والتغريب، وحافظت الأمم على خصائصها التاريخية الحضارية بفضل اللغة التي باتت البؤرة التي يتوهج منها نور الفكر المتجدد والمتوالد عن مواريث الشعوب، وهنا تغدو اللغة المحفظة.

23 - ابن جني "الخصائص" ص.

24 - عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز" ورد في كتاب أحمد مطلوب "عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده" ص٣٤ – الكويت.

التي تندرج تحت طياتها قيم التراث، ولا ريب، تزخر مظان اللغة بالقيم الجمالية التي تفصح عن أسرار إلهية غاية في الفتون والإبهار والارتعاش، ولا أغالي إذا قلت أن اللغة أداة إلهية وهبتها القدرة الخالقانية لإزالة الملاءة الشفافة عن وجه الحياة النضير، ولعمري، ستظل اللغة تتناسل وتتوالد وتشع كما تتولد الطاقة وتشع في عصرنا التقني العظيم، وستظل ملفعة بهالة روحية بوصفها "أداة لغوية مقدسة" تعبر عن معنى وجودنا وموجوديتنا فلا يداخلنا شك قط في أنه من خلال دراستنا لألفاظ اللغة ومركباتها وأساليبها ودلالاتها نستطيع التعرف على أنماط التفكير لدنّ أية أمة أو شعب أو قبيلة، ونتمكّن من التمييز بين ما هو بدائي وبيئي وحضاري ومعاصر وتقني، ونحدد في ذات الوقت مواقعهم في سلسلة "السيرورة" الزمنية التي تخص زمن الإبداع أو ما يسمونه بـ "سيولة الزمن".

الزمن اللغوي

أريد أن أقف عند موضوعة ترتدي كبير أهمية في بحثنا، هي "الزمن اللغوي". إن اللغة التي صاغت القيم الإبداعية منذ الرسوم الجدارية إلى اللغة الأسطورية، مروراً بالكتابية الحديثة، هل اتصفت بأبعاد زمنية متقاربة أم متفاوتة أم مستقلة أم مستمرة عبر سيولة الزمن؟ وهل ستصبح خارج إطار التاريخ عبر التقادم الزمني، وتغيرات الأحوال؟ وأن كل ما هو معاصر أو حداثي داخل إطار التاريخ يخضع لمبدأ التلاشي أو التنسيق أو التحطيم؟ إنها مسائل جد حساسة، ومثار جدل، لم يقف الوعي عند رؤية موحدة تخلص إلى قناعة بأن الزمن اللغوي امتدادي عبر لحظات التوليد، فيستلزم الوقوف عندها والبحث المعمق فيها، وألا يداخلنا أي شك في ذلك، فمنذ بدء تشكل البنى الأسطورية في المخيال الإنساني إلى آخر لحظة إبداعية معاصرة، ظلت اللغة شكلاً ومضموناً ضمن سياق الزمن الإبداعي، المنتظم في عقد المعادل الزمني البعدي التوالدي، فمهما يكن من شك، لا يجوز القول في أن الأسطورة هي البُعد التاريخي للغة، بحيث يغدو ما مضى زمناً خارجياً، والحاضر زمناً داخلياً في أنشطة التخلّق الإبداعي، وهنا تبرز ظاهرة غير منطقية كما تبين لنا من خلال البحث، تظهر أن فصلاً حاداً بين شكل ماض، ومحتوى قائم في جُلى

البنى الإبداعية، وهذا ما يمكن القول عنه بـ "التغريب الزمني" للأبعاد النصية الذي ينفي زمن اللغة في سيرورة التخلق العقلاني، ويلغي الحركة التاريخية للاشتقاق اللغوي، يقول ميشال ديرميه: "فالإبداع لا يعني بتاتاً الانفصال الكلي عن الماضي، لأن الانفصال عنه يعني الوقوع في فراغ العدمية". فبطبيعة الحال، أن زمن التوليد في البنى الإبداعية، يتعلق باستكمال سيرورة الفعل للتحرر من سكونية البعد التاريخي، ومن الانقياد الأعمى صوب هاوية العدمية (NIHILISTIC) في طرائق التعبير الفني والفكري والجمالي الآسرة، وهنا تخلق اللغة الوحدة الزمنية بين حركة الإبداع الجمالي العام، وحركة الخلق الجمالي الخاص، أعني زمن وحدة الطبيعة بين الذات والموضوع جمالياً. اللغة جملة مفاهيم ترتبط بسلسلة الزمن المكوّنة من حلقات متداخلة ومترابطة، وأن كل حلقة منها تحتوي على لغة تعبير ذاتي (فردي- مجتمعي) تشمل تجارب وخبرات وقيم وثقافات وأعراف ومشاعر وأفكار وطقوس وتقاليد ومنجزات؛ قد تختلف الحلقات حسب خصوصية المجتمع، بيد أن هنالك ناظماً زمنياً وبعداً مكانياً تتسق فيهما فعالية التعبير، وأحسب أن اللغة والزمن خطان متجدلان رسمهما الوعي الإنساني، فباتت اللغة إنساناً، والإنسان لغة، ولا معنى للزمن ما لم ترسم اللغة رؤاها وانطباعاتها على لوحة الزمن.

لا غَرْو في أن رموز اللغة مجرد إشارات تعبيرية مستوحاة من إيقاعات الطبيعة، يتفاهم بها الوعي مع الموجود الطبيعي، ولعلني أستطيع القول، أن اللغة مجرد همسات أثيرية متواترة تسبح في فضاء (ESPACE) إحساساتنا، وتشعرنا دائماً بتوليد البدء في لحظة الزمن، والملاحظ أن لا زمن يعيد نفسه أو يرتد إلى نفسه، ولا تخلُف لزمن أو قفزة لزمن، إنها لحظة تناسل خلقاني، أي

البدء في حالة خلق الممكن الجمالي الذي تلفظه اللحظة الزمنية، وهذا تعبير صريح وضمني عن حقيقة استبطان الذات في الأبنية اللغوية.

نؤكد على أنه لا يعني وعي اللغة عند عودته إلى الوعي التاريخي لمظان الخطاب الإبداعي فكرياً وروحياً وجمالياً لإنسان تلكم العصور المنصرمة، رجعة إلى الوراء، وإنما البعث المتواصل، والتجدد الواقعي في نسيجية الزمن، وليست المثاقفة والانفتاح على تراث الغير وألوان النقد والترجمة.. هي خارج منطوق الزمن أو سيرورته، ولا عودة إلى بدء زمن الغير، وإنما انعكاس (REELECTION) على الأصيل المنساب في سرير الحداثة. ليست اللغة كما يقول بارنز "آلة تنظم المجتمع الإنساني" ولا كما ورد في صاحب القاموس "أن اللغة أصوات" ولا كما جاء في اللسان "اللغة هي اللسن" ولا هي كما يراها المنظرون وسيلة أو أداة، وإنما هي في منظورنا وعي لغوي مُشكِّل من منظومة كلية تمتاز بوظائف منفتحة على زمن سيروري، ومتناسلة مع لحظة وعي الحالة، ومتفجرة مع وقوع الحدث، وفيضية مع سطوع الرؤية، هي وعي يصيغ أعم القيم المعرفية، ويصنع أرقى الوسائل التي تقوم على ممارسة فعل الإبداع الفني واحتواء الفكر عبر لحظاته التاريخية، وتنشيط الحركة الثقافية على كافة حالاتها الراهنة.

الخصائص البنيوية في المنظومة اللغوية

اللغة أشبه بالجسد، فمثلما لا غنى للجسد عن الروح، لا غنى للفكر عن اللغة، لأن كلاهما يشكلان جوهراً واحداً في وحدة الذاتية "الهوية" ومن ذا تظل اللغة "هي هي" غير أنها تنمو وئيداً ضمن وحدتها البنيوية، والحال نفسه في بنية الجسد الذي يبقى "هو هو" بيد أنه ينمو ضمن وحدته العضوية، فنلقاه ثابتاً في تكوينه العضوي، متحركاً في تحولات بنيته، والشأن نفسه في اللغة، نراها ثابتة في تكوينها المعاني، متحركة في متحولات بناها، هي داخلية في زمن الثابت الدلالي لوحدات المعاني، خارجية في زمن المتحرك التوالدي للمفاهيم التعبيرية، لكن الوحدة الجوهزية التي تتصف بها العلاقة السجالية بين الداخل للمعاني بالخارج التوالدي، هي سر سيرورة الزمن اللغوي في الوقائع الإبداعية، أما الدلالات اللغوية في إعادة مجسدات بنائية ارتجاعية، قائمة على توالدية تراتبية (ORDRES) هي داخل مساحة أو فضاء جغرافية الكيان اللغوي لا خارجه، فمن غير الممكن القول أن التجسيد هو خارج بناه، وإلا أصبحت رؤيتنا أشبه بمن ينظر إلى لوحة خارج ألوانها وخطوطها وتشكيلاتها، أو كمن ينظر إلى زهرة خارج مبناها الجمالي الذي ينزُّ عن براعة التشكيل الهندسي لتويجاتها المتناغمة وألوانها الجذّابة، واللغة تجسيد طبيعي لتجربة

الوجود الإنساني، وتعبير خلاق عن حالات التجسيد الحيوي، وإفصاح عن جوهر الحقائق الجمالية المستوطنة في ماهية الوجود، بوصفها وعي تعبيري، وسر الطاقة التوالدية في البناء العضوي اللغوي. إن اللغة تستفيض من داخل ذاتها فتتحوّل من مغاير تعبيري إلى مغاير آخر، وعلى الرغم من أنه تعددي في أنماطه المختلفة، يظل واحداً في انبثاقاته وامتداداته، وكأنك تحسبه خارج وحدته، غير أنه يخرج من داخل نفسه، يقول أندريه لالاند: "إن اللغة وظيفة التعبير اللفظي للفكر، سواء كان داخلياً أم خارجياً"[٢٥].

يتحتم على الخواص اللغوية أن تحافظ على هويتها الثابتة فضلاً على قابليتها للتناسخ المطرد، وتظل كالجسد الذي يختزن طاقته التناسلية وامتلاكه القدرة على التكاثر ضمن مواصفات الوحدة العضوية الجسدية الثابتة "للهو" فكلاهما يتماهيان عبر لحظات الخلق، فيتأصلا ويتناسلا دون تناه، والجسدنة هنا تشكل في تحايثها كينونة لغوية من ذات الجوهر، وأنها أشبه بالشمس التي تتفجر نووياً داخل نفسها، فتمنحنا الطاقة والحرارة والنور، لكنها واحدة في جوهرها الذري، وواحدة في خواصها الإشعاعية، ولامتناهية، من حيث أنها تكفي نفسها بنفسها من خلال عمليات التوليد الذاتي للطاقة المتجسدة دفئاً ونوراً وجاذبية وحركة كونية منتظمة.. إلخ والشأن نفسه في اللغة التي تمتلك نفسها جواهر معانيها في الثابت الدلالي والشمس التي تمتلك طاقتها في الثابت النووي.

في اللغة خصائص بنيوية قادرة على استيعاب مشاكل العصر وامتصاص أزماته وطرح الحلول والرؤى، ومن أهم وظائفها، الاتصال والتفاعل المشترك

25 - أندريه لالاند – من "المعجم الفلسفي" ص٥٥٣.

بين أبناء البشر، وحياة كلّ أمة مرهونة بعلاقة اتصال وتواصل، ولا مندوحة في أن اكتساب المفاهيم اللغوية إثراء للتفكير والتوسع المعرفي والحكمة الرصينة في منظومة اللغة، إن في خصائص اللغة المحكّمة من القدرة على الاشتقاق وتنوع المعاني وعمق الدلالات ما لا تتوفر في أي من وسائل التعبير الأخرى، وتفوق خصائص التعبير الغريزي في سلوك الكوائن الحيّة الأخرى، وحسبنا أن في عملية دخول ألفاظ أو مسميات على اللغة، لا تفسدها أو تضطرب لها، كون ملكاتها تتقبل الدخيل فتتمثله ويندغم بها، أي يمتزج متعالقاً في خصائصها البنيوية، ذلك لأنها وعي كلاني وحس راق، وليست أداة، أو صوتاً فحسب، فاللغة كائن حي، من حيث أن الكلمة تتولد من الكلمة، والمعنى يتناسل من المعنى عبر عملية مخاض يحصل داخل رحم النص وليس خارجه.

اعتبر الجاحظ أن الشكل الصياغي في المباني اللغوية هو المعنى والقيمة على حد واحد. فظل ضمن فلسفة الشكلانية الفنية في نظرته لجوهر المفهوم، وحسبه أن المحاسن المبهرة هي فتون الجمال ليس إلا، لكن الحقيقة أبعد من هذه الرؤية القصيرة، وحسبنا أن الزهرة التي أبدعها الخالق في أحسن نيقة، ومنحها تراتباً في التشكيل الهندسي المركب، والحركة المتناغمة في الرصف المُحكم، والانسجام المتشاكل بين أجزائها، جعل من هذا المنظوم التناغمي والتراتبي في التشكيل الفني هو الجمال بحد ذاته كونه يمثل قيمة ذات معنى تعبر عن وعي الخلاق، أما فيما يخص تراتب المعاني في العقل أو الوعي، أو ما يشاغل النفس ويراود المخيلة التي تتخلق هذا الجمال المنظوم المعقد عن طريق اللغة أو الخط أو اللون أو الإشارة أو المقولة، فإنه إفصاح قيمي (وعي قيمي)

يستبطن الذات ويعبر عمّا يجيش في داخلها، يقول عبد القاهر الجرجاني: "اللفظة لا تؤدي معنى مفيداً إلا داخل بنية لغوية تضم فيها الكلمة إلى الكلمة، وتبني اللفظة وقيمتها داخل البنية أو النظام اللغوي"[٢٦].

إن الجمال يوجد خلف غلالة أدوات ومستلزمات الإفصاح، أقصد أن المعنى خلف اللون واللفظة والصورة والخط...إلخ. ومن الممكن تجاوز الثنائية المزدوجة من وعي الشيء الظاهر إلى قيمته الباطنة، فالشكل الدال مكوّن من لفظة تعبر عن الخير الذي يندرج تحت قيمة "الفضيلة" من المستويات الأخلاقية العليا، وطبيعي أن الفضيلة قيمة ثابتة في طبيعة الذات الإناسية، وهي سابقة على قطبي الدال والمدلول في عملية التعبير، والقيمة أوجدها وعي عقلاني عالٍ خارج المشير والمشار إليه، والدال والمدلول، لذلك فإن أي إبداع فني واع لا يقاس جماله عند التلقي الحسي الأول باعتباره شكل محاسني، وإنما باعتباره معيار قيمي جوهري وليس إبهاراً شكلانياً.

وأرى في هذا المنظور "أن القيم الجمالية وعي متأصل في كُنه المادة، وأن الوعي الفني هو جملة القيم الجمالية المتأصلة في كُنه الذات.. والجمال شكل ومعنى بآن واحد، فلولا جمال العلاقة وانسجام وتوافق الخواص الجوهرية للشيء، ما كان لظاهر الشيء نيقته الجمالية، فعلى سبيل المثال، الكلمة مؤلفة من عدة حروف مجردة لا معنى لها، وحين تركب هذه الحروف، تتضمن الكلمة دلالة معانية، وصياغة عدة كلمات تعطينا جملة من المفاهيم، والمفاهيم تعطينا جملة من القيم الجمالية"[٢٧]. كما وأنه : "يغدو الانبهار في الحاسة شكلاً "جوازياً" وفي الإدراك باطناً "وجوبياً" وهذا الباطن يمثل القيمة الجمالية التي تمنح الشكل نيقته... والقول... يمنح الوجود الإدراكي جواز

26 – د. عبد العزيز "مرايا مقعرة" ص٢٣٨ – العدد /٢٧٢/ سلسلة عالم المعرفة – الكويت.

27 – انظر في كتابنا "الإشكالية في فلسفة الفن والجمال" ص١٣٠.

الحاسة التي تستحوذ على الاندهاش والإعجاب واللذة"[٢٨]. إن أي دال (SEME) هو تعبير عن معنى ما، لكن ليس بالضرورة أن أي معنى (MEANING) ذو قيمة (VALUE)، فكثير من المعاني تشير إلى أشياء محددة ومتداولة في حياتنا اليومية لقضاء حاجاتنا وتفاهمنا، بيد أن القيمة مفهوم ثابت وعال وشمولي يصلح لأي زمان ومكان، وقد تصل القيم درجة المقدس، فيجدر بنا التمييز بين مفاهيم الثالوث الدلالي (الإشارة، المعنى، القيمة).

إن الإشارة مجرد صوت "دوي" والمعنى مجرد دلالة إلى مصدر الصوت "رعد" والقيمة مفهوم يدل إلى حتمية سقوط المطر "قانون"، من ذا أمكننا القول، أن الدوي إشارة دالة إلى معنى ينبئ بأن مطراً سيهطل والقيمة هنا تعبير صريح عن قانون مناخي باحتمال سقوط المطر، فضلاً إلى أن هنالك مفاهيماً قيمية ترتقي إلى مستوى الرمز الخالد، والمعتقد الأزلي، وممارسة الفضائل العليا، والمُثل الخالدة في حياة الناس، وثمة قيم تستوطن ثنايا الضمائر، إن الجمال حالة فوق مفاهيم الثالوث الدلالي كونه أحد أبرز الخصائص العليا التي تستفيض عن ماهية القيمة، ولا يمكن أن يكون الشكل أو الصفة أو الرمز أو الإشارة..إلخ عناصر تحدد المعاني الدالة إلى الأشياء، وإنما الصياغة التامة في مقام (CONTEXTE) البنية الكاملة، وليست اللغة أمر شرط في تحديد المعاني القيمية في كثير من دلالات التعبير، ولا أعتقد قط في أن النظام اللغوي مكوّن من جملة قيم ومعايير عليا صرفة كما خالها منظرو علم اللسانيات (EPISTEOMOLOGIE) الحديثة، إذ أن النظام اللغوي جملة وظائف تعتنى بإيصال المعاني المركبة وفق أنساق بنائية متناغمة لها مداليل ترقى إلى سقف القيمة الثابتة.

28 - المصدر نفسه – ص١٣٨.

الوعي اللغوي في مَبناه الدال ومعناه الدلالي

اللغة جسد حامل لموضوع الوعي، وقابلة للتحوّل (METAMORPHO) لكنها تنفي التناهي في جوهرها المتشظي، وتظل موضوعاً إدراكياً في فهم العالم والتعامل والتواصل معه في إنتاج اللحظات العقلانية الخاضعة للتوالد والامتداد والخلق، ونحن لا نبحث عن الجسدنة اللغوية ككينونة فحسب، وإنما عن أعم المفاهيم وتجلياتها في مظان الأشياء المتجسدة في محتوى الوعي اللغوي، آخذين بعين الاعتبار مفهوم الوحدة بين حضورية المتجسد اللغوي ودلالاته الوعيوية في حياتنا الأعم، وننظر إلى أن وعي العالم لغوياً هو حالة تحوّل انتقالي من الوعي الغريزي البدائي إلى الوعي العقلاني المُحدث اللامتناهي عبر لحظات الحضور الأفهومي لصياغات الكلم.

ما أحوجنا اليوم إلى الأخذ بالأسباب اللغوية المتقحمة في عصر العلم والمعلوماتية، وتناول قضاياها وإشكالاتها فهماً ونقداً وتحليلاً، وقراءتها بمنظور علماني متحرر من نزعة الانتماء والانحياز والبينية، وجعل الوعي اللغوي يجدد نفسه ويؤسس خطاباً فلسفياً ومعرفياً وجمالياً يساهم في بلورة الفكر الإنساني المعاصر، ويتجرد عن هيمنة الرؤى السطحية والمنغلقة في معالجة القضايا الكونية التي تمس جوهر وجودنا الإنساني مع قناعتنا أن

الوعي اللغوي يمتلك خاصية تشظ متجانس، وهو أقرب شبهاً بالخلايا الحيّة التي تتكاثر وتظل محافظة على خصائصها الجينية، وأرى أن من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن تشظي التجربة اللغوية في مصاغات الخطاب عبر اللحظات التاريخية المتجذرة في مغاور الروح الذاتية والاجتماعية في حياة التخلقات هي إعادة تنظيم أشكال الوعي للمخزون المعرفي من ذخائر مواريثنا، وخلق نجائب إبداعية رابطة، ولا ريب في أن الراقيات منها، تغدو حيناً نماذجاً تعبر عن دوال روحيّة، وأزعم أن تواصلية الحياة اللغوية في النسيج الاجتماعي ليست إلا عودة إلى الجذور اليقينية، وما من لحظة راهنة إلا نجيبة لأصل ممتاز، والكلمة الخلاقة تعيش لحظة الحياة منذ إنجابها، وترتقي إلى حيث أن تكون، بيد أن أجسادنا مذ أن تلد تعيش حياة الموات، وتتحدر إلى حيث لا تكون، ونستطيع أن نطلق مقولة أن الإنسان كلمة خالدة، وما يفعله ليس إلا لخلوده.

إن العلاقة الهرمينوطيقية (HERMENEUTIGUE) بين عالم الذات وعالم الوجود أفرزت رموز اللغوي المتشظية من تحت ركام التأملات لما سبق من أزمان البدء الأول التي قرأت الظواهر واشتغلت على أساسها في تكوين بنى التأريخ المتعالق مع لحظات الخلق المنتجة.

عندي ما أتحفظ عليه إزاء مقولة تقر بقوانين ناظمة للغة، فأرى أنه لا يوجد ما يدعى بقوانين ناظمة، وإنما قواعد فنية ضابطة، فالقانون خاصية ثابتة وأزلية في البنية اللغوية وأنه تخلّق كلي تام مسبق غير قابل للتناقض والعدمية والزوال أو غير قابل للتحوّل والارتقاء والتجدد، لكن في القواعد الضابطة ينتظم الوعي اللغوي ضمن سياق الإبداعات التي تحقق الوعي المفهومي كمعرفة قابلة للتجدد والتشظي، والوعي القيمي كجمال قابل للتألق والإمتاع، فالقواعد لها خصوصيتها المرجعية المتوافقة مع معطيات

الوقائع والأحوال، وبنفس الوقت تعتبر القواعد وظائف ذات ضوابط فنية لبنية الخطاب، أما إدراك وظائف القيمة الجمالية المنبجسة من أغوار الوعي المعرفي وما يتملكه من معان ودلالات ورؤى، هي التي تجسد مشهدية الفعل المعرفي والثقافي والجمالي، وتخلق الإشكالية بين رؤية وأخرى، وموقف وآخر، فهنا وعي لغوي لقواعد فنية وضعية تتعلق بفن القول، ولدلالات معانية تتعلق بقيمة القول، وهذا ما يعنينا في أبحاثنا عن الجمالي في فلسفة الكلام، فالكلمة رمز علام لصورة القول، وبنفس الوقت رمز دلالي "معاني" لجوهر القول، وكلها تنتظم في النسيج القولي، والجوهر الدال خاصية تضايفية تجترحها التجرية الإبداعية.

إن الاتصال عن طرائق الإشارات والرموز والكتابات والصور والتجسيدات الحركية..إلخ، هو وعي للعالم وأن صياغاتها الأفهومية قيم معرفية بناءة، وأدق القول، أن اللغة بناء حسي لمعرفة الوجود من حيث الشكل (FIGURE) وبناء إدراكي لمعرفة الوجود من حيث الجوهر (SUBSTANTIAL) ويجدر التنبيه إلى أن اللغة لا تفرق بين الحسي في المفهوم الصوري وبين الإدراكي في المفهوم الانطباعي، إذ أن المفهوم الحسي هو دلالة وعي مباشر، وهنا يمثل انعكاس وعي الدلالة ظاهرة الانكسار باتجاه المصدر نفسه، وإن صح تشبيهنا، فإن الجُدر الدماغية أشبه بقطعة الموشور، فتراها ما أن تومض فكرة حتى تنكسر وتتحوّل إلى متوالدات صادرة عن بؤرة واحدة في جوهرها، فتنتشر متداخلة عبر صفائح الوعي التي تنطبع عليها الصور اللغوية للحياة داخل علبة الوعي السوداء، ثم تصدرها حزمة صياغات مكوّنة من رموز وإشارات وألوان دالة "مفهوم"، ومن الجهة المقابلة تختزن اللغة في مظانها شعور "الأنا" الجمعي، والوجدان النبيل، والوعي العقلاني، والتاريخ الإنساني

بعجره وبجره، وأُقدّر أن تجربة الإبداعية ما هي إلا عملية تشخيصية في أعماق الوعي اللغوي نفسه، صحيح أن اللغة جسد يربط بين ضفتي العمقين الممثلين بعمق الذات، وعمق العالم، أنه امتداد يُعشّق العمقين في ميكانيكية الفعل الإبداعي الذي يُفسر محتوى الأعماق وينميها من خلال سيرورة حركة التاريخ الأفهومي للغة.

الوعي اللغوي في الثابت المقدس

لا مندوحة، أن للغة خواص ثابتة، إلا أنها منفتحة على زمن (TIRTIMSPACE) سيروري امتدادي حداثي، لذلك تظل محافظة على وجودها زمانياً، ومتألقة في نمو وعي الأجيال، ومحايثة لتاريخ حركة الإبداع الإنساني، يقول لودفيغ فتشنشتين (L.WITTGENSTEIN) – (١٨٨٩- ١٩٥١) في "نظرية المعنى" التي تتحدث عن تحوّل الفكر إلى أعم القضايا المعانية المعبرة عن الوقائع الخارجية. حاول "فتش نشتن" تحطيم القضايا الميتافيزيكية بوصفها فرضيات ثابتة لا معنى لها في الواقع، بالرغم من أن القناعة بها والدفاع عنها نتيجة مؤكدة لسوء فهم منطق لغتنا، ونحن هنا نرى في موضوعة المقدس الذي يمثل جوهر المعتقدات الماورائية "الميتافيزيكية" السكونية (SYNCKRONIGUE) كما يدعي كثير من المفكرين والفلاسفة، أن المعنى يشمل الثابت ( ) والمتحرك (MOUVEMENT) على قدر واحد، يقول "فتشنشتين": "وهكذا يبدو من الصحيح تماماً القول بأن قضايا "الميتافيزيقا" وطالما أنها قضايا بلا معنى، فإنها مما لا يمكن التعبير عنه، وإنما هي تتبدى وحسب، وبالتالي لا بد من الصمت حيالها"[٢٩].

---

29 – لودفيغ فتشنشتين "رسالة منطقية فلسفية" تر. د. عزمي إسلام. مكتبة الأنجلو المصرية – الفقـرة /٧/ القاهرة – ١٩٦٨.

يحسن بنا استعراض أهمّ المقولات التي طرحتها "نظرية المعنى" عند فتجنشتين قبل بيان وجهة نظرنا بهذا الشأن، وأود أن أشير إلى أنه ستطالعنا مباشرة "رؤية حصرية" بمعنى نظرة محدودة ومشروطة ساقته في النهاية إلى متاهتي الثابت واللامعنى. يرى فجنشتين أن فهم العالم لا يأتي إلا عن طريق تصوير الوقائع الجارية بواسطة ملكة اللغة، ويعتبر أن كلّ تصوير هو نفسه المعنى الصرف للكلمة، والتعبير التام عنه، وما عداه خيال ووهم يقول: "إن الفكر هو الرسم المنطقي للوقائع"(٣٠). وأن ما وراء الواقع لا معنى له (NON-SENSE)، ولعله ناتج عن سوء الفهم لمنطق اللغة، واستخداماتها في البناء المنطقي للعالم (THE LOGICALSTRUCTURE OF THE WORLD) ، أما فيما يخص القيم فهي مفاهيم مستبطنة في القضايا نفسها، وأن الباطن يعطي الكلمة طابعاً ورائياً، والحديث عن عمليات عقلية باطنة لا معنى له، يقول: "حاول ألا تفكر في الفهم بوصفه عملية عقلية على الإطلاق، وأن الفهم لا يعني سوى ما قمت به"(٣١). ويؤكد على أنه ليس كل معنى له صفة الثبات والديمومة، وإنما هو متغير ومتبدل كونه يتجدد بما يقابله من وقائع حتماً بفضل أداة اللغة، يقول: "أن اللغة هي أداة الفكر"(٣٢).

ما أن نستقرئ حجج مقولاته حتى نحد خلطاً وتشويشاً من جانب، وعزلاً وتوضيحاً من جانب آخر في الرؤية نفسها، وسأسوق الدليل على ضوء ما تم عرضه من الأفكار التي تضمنتها "نظرية المعنى" عند فتش. في البدء يحدد فتش "أن اللغة أداة الفهم" وتمثل المعنى المصاحب له في الآن نفسه. قد نتفق معه

30 – المصدر نفسه – لودفيغ فتشنشتين "رسالة منطقية فلسفية" ص٢٥٨.

31 – المصدر نفسه "بحوث فلسفية" تر. د. عزمي إسلام ص١٠٨. الكويت.

32 – المصدر السابق نفسه ص.

ونتطابق في مقولة أن اللغة تعبير عن المعنى المصاحب، وقد أبدينا وجهة نظرنا، وهذا على ما أظن مجمع ومتفق عليه، وقد مررنا على ذكر هذه المسألة في معرض بحثنا، لكننا لا نتفق معه في قوله أن اللغة واسطة فهم أو أداة نقل، وهي نفسها تعبير عن معنى الكلمة، يقول: "إن اللغة هي نفسها أداة الفكر". يأتي هذا الخلط من رؤيته في أن الكلمة تُصوِّر الوقائع وتستبعد الملكات العقلية، فموضوعة أن الكلمة ترسم الوقائع بوصفها فكر، فأمر لا جدال فيه، أما أن المعنى ينحصر في الأداة اللغوية فحسب، فهذه رؤية مشوشة ومنقوصة، ولا أساس لها من الصحة، كونها تحصر الفهم في الأداة وتستبعد الوعي "العقل" في الإدراك المباشر للقضايا أو الوقائع ضمن عمليات عقلية أو ذهنية مسبقة، فإذا كانت اللغة هي التي تمنح للواقعة معناها الثابت، فإن في ذلك عزلاً للفكر المتخلق عن قضايا الواقع وعزلاً للغة عن الفكر، وعزلاً للواقعة عن اللغة، إنه منطق تفكيكي لوحدة الوعي اللغوي ويقود إلى متاهتي الثابت واللامعنى، ويفضي إلى مشروطية جامدة، وهذا ما اعترف به فجشتن نفسه، كما وأنه يرى في أن كلّ ما لم يأت عن طريق التصوير اللغوي للواقع هو ضرب من العبث والخواء والوهم بقوله: "إن الفكر هو الرسم المنطقي للوقائع" أو ما يدعوها بـ "الصورة المنطقية" (LOGICAL FORM)، يصرّ فتش على أن اللغة تحتوي عمق المعنى، وأن أية قيمة لقضية ما مستبطنة داخلها، نحن نتفق معه، لكننا نخالفه قوله في أن كل ما وراء الواقع لا معنى له، ولما ربط الماوراء في سوء استخدام منطق اللغة، وبيّن أن العمليات العقلية الباطنة هي ماورائية لا معنى لها بقوله: "حاول ألا تفكر في الفهم بوصفه عملية عقلية على الإطلاق"(٣٣).

33 - لودفيغ فتشنشتين "بحوث فلسفية" تر. د. عزمي إسلام — ص١٨٦ — الكويت.

نستشف من مفهوم الماوراء عند فتش هو العالم اللامحسوس المغاير تماماً للعالم المادي المحسوس، وربط جُلّى المعاني بالوقائع الذرية التي تكوّن المعيار الحقيقي بين صدق المعنى أو كذبه، ويرجع معظم العمليات الذهنية أو العقلية أو الوعيوية وما يستفيض عنها من مفاهيم أو قيم أو أحكام إلى تشكيل وجود عقلاني غير محسوس، في حين يعلم فنجشتن يقينياً أن اللغة أداة مستمدة من الواقع، ومعناها متضمن فيها ومصاحب لها، صُحبة الجسد لظله، أما نحن فعندنا اللغة وعي بحد ذاتها ومسبقة على الأشياء المعرفية، والأشياء مادة للوعي المنعكس على جدار المخيلة أو الذهنية أو ما ندعوه بالعقل، وأن العلاقة العقدية بين الوعي والمادة هي حالة انطباق وتجانس وتناغم تقتضيه الضرورة الحتمية بحكم أنها ناموس كوني أزلي، وأما فيما يخص الثابت الذي يفضي إلى اللامعنى، فهذا ما يخالف معادل التوليدية في طبيعة الفكر المبدع للقضايا ذات الأحكام القيمية، وبمعنى أن طبيعة اللغة متحركة وانتقالية من معنى إلى آخر، قد يكون المعنى متطوراً أو متبدلاً أو متغيراً تماشياً مع سيرورة كل ما هو حداثي.

ما أريد أن أخلص إليه هو أن فنجشتين كان أُحادي النظرة لما أقرّ بأن كلّ ما لم نفعله وهم لا وجود له، بهذا نفى العلاقة الجدلية بين الوعي والمادة، ونفى عالم الروح والعقل المجرد، وأبقى على واحدية المادة الموضوعية واعتبرها القوة الملهمة للفكر واللغة والوعي، فأعطى أسبقية المادة على الوعي، وربط غالبية الأشياء فيها بشكل متطرف منغلق لا يقبل الحدل، وخلُص أخيراً إلى أن معرفتنا هي تفسير العالم كما نراه في أداة اللغة، لا كما ينبغي أن نفكر به في الوعي اللغوي.

إن اللغة التي تناولت القضايا المقدسة منذ بدايات وعي العالم الخارجي لإنسان الرسم الصوري "لغة الصورة" ثم الكتابة الحرفية "للغة المعانية" أظهرت

صدقاً ثابتاً لازم جميع ما أفرزته حركة التصور والفعل البشري الجمالي في أعم القضايا الإناسية (ANTHROPOLGIGUE) التي تناولت اللغة والمقدس على نحو جدلي، يقول "فتشنشتين" في "الرسالة": "إن معنى القضية يتحدد بما يقابلها من وقائع أما القضايا التي لا معنى لها فهي التي لا تقابل وقائع"(٣٤).

من البدهي أن القضايا التي لا تمت للواقع بصلة هي تخيلات وهمية أو خرافية أو أسطورية افتراضية (VIRTUELE) متخيلة، والتقديس لهذه القضايا ناتج عن فكر لا يمتلك خصائص عقل نقدي (CRITICARATIO)، ومجمل ما يطرحه مجرد مقولات ساذجة لا معنى لها، فالفكر لا ينفصل عن أسباب مؤثراته، سواء داخل الذات أم خارجها، لكن أثبتت مدونات التاريخ الإناسي، أن القضايا الأكثر تطرفاً وتجرداً عن الواقع، كانت أكثر مساساً بالواقع، فالخصائص الأسطورية (MYTHOLOGIE) التي كانت تفصح عن دلالات معانية تتعلق بالدين، كانت تتعلق بالإفصاح عن أعم القضايا الإنسانية، وقد تميزت الأساطير الإغريقية والفرعونية والساحل السوري وبلاد ما بين النهرين، والصينية بمحاكاة للواقع، وأنك لا تجد هنالك أي تميز بين القضايا الدنيوية سواء كانت وقائع ذات منشأ أرضي أو قضايا آخروية بوصفها وقائع ذات منشأ (URSPRUNG) ما فوق الطبيعة، ولعلك تتلمس مفاهيماً وأفكاراً وأحكاماً وشرائعاً وشعائراً وطقوساً تعبيرية وقولية وأنظمة...إلخ تمس جوهر الذات الإناسية، وتظهر لك أنماط تفكيرها ومستوى الوعي العقلاني البدائي عندها، فأبرزت اللغة الأسطورية جلال الأدب والفن لدى تلك المجتمعات، ولنا في الإلياذة والأوديسة، وأُزيريس، وجلجامش.. إلخ، خير شاهد على عظمة

34 - فتشنشتين "رسالة منطقية فلسفية" الفقرة /٧/.

القضايا التي تعلقت بالوعي اللغوي والعقلاني المرتبط بالواقع مباشرة، وبينت لنا أن الآلهات والبشر، كانت لهم نفس المنزلة، وأن قضاياهم تنبع من أصل واحد، وحينما نتحرّى الأصول الفكرية والمعتقدية والتاريخية والثقافية والفنية لتلك المجتمعات وأنماط حضارتها، فإننا نلمس دعوات متعددة تحثنا على فعل الخير ونبذ الشر، وباعتقادنا أنها أرقى القيم الجمالية التي ينبغي أن تتداولها المجتمعات الإنسانية لما فيها خير الناس، يقول أفلاطون "إن الآلهة لا تتسبب في كل شيء، وإنما تتسبب في الخير فقط"[٣٥].

وساد اعتقاد لدى الإغريق أن الآلهة قد استفاضت عن الوجود "الواقع" وليست خالقة له، ومهما يكن من أمر فإن الأساطير التي بحثت عن الحقائق قد اتبعت أنماطاً تأويلية (HERMENEUTICE) ومجازية في محاكاة الواقع، فزودتنا بمعارف تاريخية عن الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية والأدبية والفنية والسياسية لحضارات تلكم الشعوب الغابرة، وأن الأسطورة عند أرسطو نظام شمولي تام الأحداث، تستقي مجرياتها من بنى التاريخ، وتأسيساً على هذه المقولة، نرى بالتأكيد، أنه لا تُعد الأحداث والمفاهيم والأحكام الروحيّة الأسطورية الأشد التصاقاً بموضوعة الإله ضرباً من الوهم، وخارج حيز الوجود، أو كما اصطُلح عليه بـ "الساكن" "التابو" (TAPO)، لكنه يتبدى متجلياً في حركة المجتمع والتاريخ التي تبرزها اللغة قضايا معرفية وأخلاقية ومعتقدية وأدبية وفنية...إلخ. ويتخذ الخطاب الأسطوري في مجمل أساليبه ومعانيه ومستوياته من واقع المادة التي يمتح منها أنساقه المعرفية والجمالية والروحية.

---

35 - عالم الفكر – العدد /٢٩/ ص٢٩١ – الكويت.

إن اللغة التي عبرت عن هواجس النفس ومشاغلات البال لدى الإنسان الأسطوري حتى لحظتنا المعاشة هي اللغة ذاتها المتصفة بثبات "هو" اللغة (IDENT) كالجسد الثابت العضوية في خلقانيته الأولى، ولا سعة في أن ما يطرأ عليه من نمو وتبدل كما ذكرنا سابقاً فإنه سابقاً فإنه يظل داخل حيز "الهو" لا خارجه، بذا، تنمو اللغة من داخل "الهو" الثابت ويتبين لنا أن الثابت ينمو من داخله.

كثير من اللغات الرصينة واكبت تاريخ التطور العلمي والثقافي والفني والاجتماعي والتقاني متساوقة مع تنامي الوعي والانتشار الثقافي، فضلاً إلى تأثير اللغات ببعضها البعض، وما أضافت إلى ملكاتها من ألفاظ ومسميات ومصطلحات عليها، بيد أنها لم تغير بنيتها أو تضيف ناقصاً عليها، وخاصة إبان عصر الانفتاح الثقافي على البراني وحركة النقل والترجمة التي أدخلت مصطلحات زادت من إمكانية الاستعمال في الوجهين الإنساني والحضاري، والمستويين العملي والنظري، وسهولة التداول. اللغة تقليد مفهومي توالدي يتبع بالضرورة حركة الانتقال والتحوّل المعاني في ظواهر المضامين والغايات والحاجات، وتطالعنا حقائق من خلال دراسات علم الأجناس البشرية "الأنثربولوجيا" –علم الإناسة- كانت لسواد شعوب الأرض صلات متنوعة (دينية، جغرافية، تجارية، ثقافية، ولاء، مصاهرة، وصاية، هجرة، غزو، استعمار..إلخ) الأمر الذي خلق تبادلاً لغوياً، ولعل حضارات الشرق القديمة خير أنموذج شاهد على التداخل والتلاقح والتأشير اللغوي.

بالقطع يتعذر الفصل بين صريح ودخيل في الأصل اللغوي للبشرية، وبرز في عصرنا علماء في اللغة، ميزوا بين لغة ولهجة، في حين كانت الشعوب القديمة تتكلم لغة ذات خصائص واحدة في بناها وأنظمتها اللغوية على تباين اللغات

لدى القبائل والشعوب والأمم، ولم تعرف من قبل تلك اللغات بما أطلقته الدراسات التحليلية والتأصيلية المعاصرة بـ لغة أصل ولهجة فرع، وأخمن أن لغة الأصل تمثل نظاماً واحداً متفقاً عليه في التداول الاجتماعي أما اللهجة فهي لغة أصل في آن معاً، بيد أنها لا تتسق في نظام قاعدي مجمع عليه، فنلمس كلّ لفظة نتفوهها سواء كانت لفظة لغة أصل أم لفظة لهجة فرع، لم تأت من عبث، وإنما هي لفظة أصل تتحدر من جذر لغوي أصيل ينتمي إلى إحدى الشعوب، والسؤال القمين في الطرح هل التطور الحضاري ناتج عن الانتقال من نمط التفكير الأسطوري القائم على التخمينات الخيالية والغيبية وممارسات الرقى السحرية، إلى نمط التفكير العقلاني القائم على التجربة الواقعية والمحاكمة العقلية عن طريق اللغة بوصفها الحاضن للمحتوى المعرفي الكلي؟ أم بفضل تطور الوعي العقلاني بوصفه القدرة المفجرة لتجربة المعاني اللغوية؟ في الحقيقة يجري الانتقال من تطور الوعي الذي يتولى بدوره تطوير وظائف وخصائص الملكة اللغوية، والملكة بدورها تمنحنا أبعاداً معانية تغني الوعي الإنساني وتثري تجربته ومعارفه.

يخطئ من يقول أن اللغة عامة واللهجة خاصة، وأعتقد أن العكس صحيح، فلو رحنا نتبع بعين باحثة ناقدة الخصائص اللغوية في محتوى التراث الإنساني حتى وقتنا المعاصر لوجدنا أن اللغة الرسمية الأساس يتم تداولها ضمن مستويات محددة من مستويات التوضع الاجتماعي والرسمي الخاص، منها في هيئات التعليم المختلفة، والإدارات، ومراكز الدراسات والبحوث، والمؤسسات الثقافية، وحقول الإبداع الأدبي والفكري والفني، والمعاهد الشرعية، ونجد سواد الناس تتداول اللهجات العامية الأخرى، والمستقصي في المنهج التحليلي للظواهر اللغوية سيجد ألفاظاً كثيرة في موضع تداول العامة دون أن تمت للغة

بصلة أساس، غير أنها تندرج تحت ما يطلق عليها بـ "لهجة"، والباحث عن أصول اللهجات في أمشاج العُرف اللغوي البلاغي، سيجدها أيضاً من منشأ لغوي أصيل، لها وجود تاريخي موثّق، وتتطابق ألفاظها مع كثير من ألفاظ اللغات القديمة، وأظن أن اللهجة أكثر انتشاراً في الوسط الاجتماعي، نظراً لكونها تمتاز عن اللغة الأساس "الفصيح" بسبب عامل جد واقعي ووجيه، هو أن اللهجة تتداولها العامة لأسباب عدّة مساعدة -أتينا على ذكرها آنفاً- خلافاً لما تتمتع به اللغة الرسمية التي يجري تداولها ضمن نطاق خاص محدود، والدارس لبنى اللهجات وتراكيبها المتداخلة يجد في الجملة التامة ألفاظاً مركبة من عدة لغات ذات أصل، وألفاظاً من عدة لهجات ذات فروع، فيدخل الأصل الخاص في الفرع العام، وتوخياً للإيضاح سأبين حقيقة مفادها أن الرسالة الإسلامية قد نزلت بلسان عربي محض، ولست أدري بما تحمله المقولة من مصدقية تاريخية ومعرفية حين أبدت رؤية أخرى مفادها أن القرآن الكريم نزل على محمد (ص) بلغة قريش؟! ورؤية أخرى قالت بلهجة قريش؟! علماً بأن الدراسات والأبحاث اللغوية عند العرب قد أكدت على أن اللهجات العربية التي سادت وتم التفاهم بها من قبل قبائل وشعوب شبه الجزيرة العربية عديدة ومن ضمنها "لهجة" قوم قريش التي تتصف بأنها لسان عربي مبين، الأمر الذي جعل الإله يخاطب بها الإنسانية جمعاء، قال تعالى: "وما أرسلناك من رسول إلا بلسان قومه ليُبيِّن لهم"[٣٦].

ولدى اطلاعنا على كتب التراث المتعلقة بدراسات فقه اللغة وشروحها ومصادرها ومصنفاتها وتحقيقاتها ومعاجمها، لوحظ أن هنالك تعدداً لغوياً

36 - قرآن كريم -سورة إبراهيم - آية /٤/.

عند القبائل، ألفاظ تتطابق وأخرى تتناظر، فمنها المتداخل ومنها الغريب، سأل علي بن أبي طالب رسول الله (ص) عندما كان يتحدث مع بني نهد، قال: "يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثر، فقال: "أدبني ربي، فأحسن تأديبي، ورُبيت في بني سعد"[٣٧]. إضافة إلى ما سبق قوله، يتوجب التأكيد على موضوعة هامة، هي أننا ما زلنا في خضم لغة تؤسطر عالمنا إلى درجة الاندهاش والإمتاع والسعادة حيناً، وتقودنا إلى الرعب والدمار حيناً آخر، وتشير بوضوح إلى أنها لا تخرج عن الوعي المنساق تحت تأثير مقتضيات (IMPLCATURE) الواقع الذاتي (SUBGECTIVE) والموضوعي (OBGECTIVE)، ولغة الأسطورة التي ظفرت بعناية المهتمين والمشتغلين من المتخصصين في علم اللسانيات فقد اعتبروا أن الأنماط التشكيلية والأسلوبية والبلاغية والدلالية والقياسية...إلخ مجرد رموز تعبيرية تشير إلى معان متحررة من أي معيار أو رابط أو قياس، ومتجاوزة كافة المستويات اللغوية والتواصل الوظيفي للأنساق اللغوية، لكنها تتجاوز الوعي والواقع حيناً فتدخل دائرة التخييل بغرض خلق تعابير ما فوق الكينونة (BEING)، بيد أنها تظل ضمن حيز اللغة خلافاً لما وقع في ظن الآخرين من خلال توصيفاتهم اللغوية لبنى وأنساق الأسطورة، وعندما نمعن النظر في مظان الرمز نجده خارج الشكل أو الصورة اللغوية، غير أننا لا نجد وجهاً حسياً للمعنى في مظان اللغة، وإنما وجهاً حدسياً، ولا انطباقاً للصورة على المعنى، أو الشكل على المحتوى، لكن تجربة حدسية تتوهج تحت رماد الصيغ، ولا تخرج عن كونها إحدى أنماط التفكير الإنساني البدائي الذي أراد فهم وتوصيف الحياة والتعبير عنها عبر

37 - ابن الأثير "النهاية في غريب الحديث والآثر" ج١- ص٤.

تراكيب لغوية ساذجة كما يراها الوعي المعاصر، وأخص المشتغلين بتحليل البنى النصيّة للأساطير، ويظهر أنهم اعتمدوا الأقيسة طرائق وأساليب لفهم الحدس الأسطوري الذي يعبر عنه الرمز والمعنى اللغوي ضمن سياقات (CONTEXTUAL) النص التي تساعد على البحث والفهم لمنشأ ودلالات الظاهرة التي اهتم بها الوعي المجتمعي وقتذاك، وطبقاً لهذا المنظور البدائي في وعي العالم وقصور الرؤية والتجربة في احتواء كلّي للنفس والجغرافيا والمجتمع استفاض المهتمون في منهج القياس الأسطوري، وساعدهم على ذلك توفر دلالات ثرةٍ في أبنية النصوص الأسطورية.

إذا ما استعرضنا صور الفهم البدائي للدلالات الظاهرية، فإنها لا تخرج عن الرؤية السطحية، وهذا ما جعل الوعي قاصراً في استغواره جوانيات الواقع في أشد الأزمان حداثة، وتعود أسباب القصور إلى سؤال يفسر إشكالية من أعقد القضايا المعرفية والجمالية في فلسفة الوعي اللغوي. هل طرائق التعبير الإبداعي في استنباطها قوانين الجمال أو الكشف عن القيم الجمالية هي عمليات انتقال من الأصعب إلى الأبسط أم تحوّل من الأبسط إلى الأصعب؟. يبدو من خلال التحليل المنطقي لطروحات الوعي التعبيري عبر وظائفه ومهامه وتعددية (PLURALISM) مذاهبه وسبله في رصد ظواهر الحياة العابرة ومظاهرها الثابتة، ظل مكبلاً في أغلال التفسير، ولما يلوح لي، انبرى التفكير الإنساني بنهج بالأصعب، ومكث بحثه ينتظر الإجابة على أسئلة مبهمة ومحيرة، الأمر الذي ساقه للولوج في متاهات لا حصر لها، في حين كان لزام على الوعي التعبيري أن يدرس مظاهر الحياة الطبيعية والروحية والذهنية والنفسية من الأبسط عند تحليله الوحدة التركيبية لكلانية الحياة، وبدهي، اللغة أحد أهم طرائق البحث التحليلي في عمليات التحوّل نحو الأعقد في بنائية

عالم معرفي عقلاني، ولا مندوحة في أن عدم معرفتنا لخصائص الوجود والكشف عن قيمه، يرجع إلى سوء فهمنا معنى الخطاب الطبيعي، وعدم مقدرة الوعي اللغوي على تفسير رموز تعابيره التي يبثها على شاشة وعينا، فصار التفسير انطباعاً صورياً للظواهر، وباتت اللغة مجرد فكر صوري لا يتحرى المعنى المستبطن في بنية الأشياء.

ليست القضايا اللغوية الأهم في عالمنا هي مجرد صور منطقية للوقائع فحسب، إنما هي جواهر القيم المنطقية المكوّنة للواقع، فالوعي لا يقف عند حدود توصيف قوى الواقع، وإنما توصيف العلاقات المنطقية للواقع، ولا أعتقد أن الإشكاليات المعقدة في فهم المعاني المنطقية للواقع حاصل سوء فهم منطق اللغة كما يراه "فتجنشتين"، وإنما هو سوء فهم اللغة للعلاقات المنطقية التي تربط معنى الوجود في وحدته الكلية.

كان يحسن ألا يتحدث الخطاب الإبداعي إلا بما له من معنى، وبما يمكن فهمه والعمل به في حياتنا المعرفية والروحية والجمالية.

الشخصية في التعبير اللغوي

تحدثنا عن اللغة المعانية منذ بدء بروز ظاهرة التعبير الصوري عبر مراحل مطورة خضع لها الوعي اللغوي الذي أبدع اللغة في مختلف أشكال التعبير (إشارة، رمز، رقم، حرف، كلمة، صورة، حركة، صوت، لحن موسيقي...إلخ).

يتعين أن يستأثر الصوت (phone) بنصيب واف من بحثنا المتعلق بالوعي اللغوي، وذلك لما للصوت من أثر بالغ في عمليات عقلنة التعبير، وبيان درجة تأثيره وأهميته ومستواه إزاء الأشكال التعبيرية في حياتنا العامة، فمن المعلوم أن الكلمة تركيب حروف منتظمة في البناء الكلمي -مفردة- تُنطق بإيقاع صوتي له تواتر دندني يتميز في النبر عن باقي الإيقاعات الأخرى، أعني، إيقاع مفردة عن غيرها من المفردات، فالكلمة بصفتها إيقاع صوتي خارجي يشير إلى دال معين، إلا أنه يعبر عن معنى داخلي صار مفهوماً متداولاً، ومن الممكن إدراك مفهوم مفردة ما على مختلف الإشارات الخارجية، لكن يظل المعنى "المفهوم" الداخلي ثابتاً في الوعي، فالقول، قلم، يقرأ كتابة، أو يرسم لوحة، أو يسمع لفظة أو لحناً..إلخ. لكن يظل مفهومه من الناحية المعرفية، أداة تستخدم للكتابة، وفي واقع الحال لا توجد أية

رابطة بين صورة الحرف المرسوم (Grapheme) أو الكلمة والنبر كإيقاع صوتي (Phone) أو الصورة المرسومة للشيء، فللمفهوم تشخيصات دالة مختلفة (تشخيصية حرفية، تشخيصية صوتية، تشخيصية تصويرية...إلخ)، لكن المعنى في كلّ صور التشخيص يظل هو الناظم المحوري المشترك والثابت في وعي الشيء، ونحن لا نتفق في هذه الرؤية مع نظرة الحركة التفكيكية (Deconstruction) التي عزلت الكلمة المكتوبة عن الكلمة المنطوقة، وأقرت بأن الصورة الكتابية أو الكلمة الكتابية لا تمت للمفهوم بصلة، واعتبارها تجربة الصوت تحل محل تجربة الكتابة، هي نظرة بدائية كما نراها نحن، وينبغي الإشارة إلى أن الصوت منطوق جسدي يعتمد على العضوية في أداء المعنى المراد، في حين أن الكلمة الحرفية منطوق عقلي يعتمد الحدسية في التعبير عن المعنى المراد.

في زمن الإنسان البدائي الأول كان التعبير مجرد أصوات وحشية لا تعبر عن أي معنى ثم ارتقى مع وعي المحيط إلى وعي تعبيري صوري دال، ويعتبر أول اكتشاف للحرف الكتابي، والذي بدوره فجر تجربة الوعي اللغوي والمعرفي والجمالي وهنالك من يقول في أن الصوت بكافة صفاته وخواصه منشأ لاهوتياً بحتاً، بمعنى أن الكلام نتاج فوقي "ميتافيزيكي" متمركز حول العقل الأعلى (Logos). يقول الفيلسوف والناقد اللغوي الفرنسي جاك دريدا (J. Drrida) في نظريته التي ضمنها آراء نقدية تأويلية (Interpretation) حول مفاهيم التفكيك بوصفها أهم موضوعة معرفية في بلاغة النص: "والحال مع تجربة الصوت، أنها تحيا، وتعلن عن نفسها بوصفها إقصاء للكتابة بمعنى، إقصاء للدال الخارجي "المحسوس"، "المكاني" الذي يعيق الحضور الذاتي"[٣٨].

38- جاك دريدا "علم اللغة" ص١٣ – تر.

إن الكتابة تختزن المعنى المستوطن أبداً في محراب رموزها، وتأخذ عمّا هو عليه الحال في الدال الصوتي المتلاشي الذي لا يترك أثراً يذكر، لذلك نرى أن إقصاء دريدا للكتابة وأسبقة الصوت عليها وربطها بالمتعالي "الميتافيزيكي"، نظرة مختلفة جذرياً عن الحقيقة الواقعية، ويعتبر هذا نسفاً وتغريباً للإرث الحضاري والروحي الذي أنجزه الوعي الإنساني المتداول في لغتنا، والمدوّن في تاريخنا، والمتعامل مع ثقافتنا، والمقدس في ديننا، والمرجعي في ذاكرتنا، وما ضمّه التراث بين دفتي سجله العريق.

هل يخضع الفن والأدب والفكر إلى دراسات منهجية أم ندعه للقراءة والتذوق؟ يقول رينيه ويليك: "لا يمكن أن يدرس على الإطلاق، فنحن نستطيع فقط أن نقرأه ونتذوقه ونقدره"[٣٩] نستشف من طرحه هذا أن مقولته منقوصة ومرفوضة في الوقت نفسه، وبطبيعة الحال، إن الفن ومن ضمنه الأدب وعلى مختلف أجناسه الإبداعية، ينقسم بطبعه إلى دراسة وتذوق بآن واحد، فالدراسة تأتي من النزوع إلى الإفصاح عن مجمل القيم الجمالية في محتوى المعاني، والتذوق للصياغات الجمالية في الشكل الفني لأي أثر إبداعي، ولما نقر بعد فيه البحث المعمق فيه، نكون قد أنكرنا المواريث المعرفية والثقافية والقيمية، وأفرغنا تجربة الوعي الفني والمعرفي والجمالي من محتوي الوعي اللغوي على وجه الخصوص، كونه يمثل شخصية الأمم وبناها الحضارية، وتاريخها العريق، ففي الوعي اللغوي جوانب هامة تتعلق بالدراسات المنهجية العلمية التي تتناول أبرز أشكال الوعي الفني تحقيقاً وتاريخاً ونقداً وبحثاً وتجربة ومقارنة وتحليلاً وتصنيفاً وتنظيراً وتأويلاً.

39- رينيه ويليك "نظرية الأدب" تر. محي الدين صبحي ص١٣ – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت.

طبيعي، تخضع اللغة إلى تحليل أنساق الأبنية لمعرفة تاريخ أنظمة اللغة ومستوياتها، وأساليب تعاملاتها (Pragmatigue) بمنظور علمي وذلك لإمكان معرفة ظواهر نموها ورصد ما يطرأ عليها من تطورات، وإن كنّا قاصرين في رؤيتنا، وعدم مقدرة وعينا على متابعة حركة الأنساق المعرفية، وتفسير قوانينها وأنماط نظمها، وعلى الرغم من كل هذه المعوّقات، إلا أنه لا يعفينا قط من دافع البحث والإلمام بحقائقها، وإثبات قدرة اللغة على الانتقال من لحظة جمالية متجددة، ووضع المعايير المنهجية الحيّة المنفتحة على تجارب الخطابات الإبداعية الممتدة عبر تاسليات متراتبة (Ordre) من منظومة الأنساق المعرفية والجمالية المعبرة عن الفكر الحيوي الذي اعتبره أرسطو بقوله: "الكلام تعبير عن التفكير" ويقول بهذا الصدد فرديناند سوسير (١٨٥٧- ١٩١٣): "اللغة نظام من العلاقات، ويصبح الهدف من جراء معرفة البنية اللغوية معرفة البنية الفكرية"[٤٠].

لا تبدو دراساتنا التحليلية والتجريبية خاصة في علم نفس اللغة، وعلم المجتمع اللغوي، على قدر عالٍ من الوعي الذي يمكنه من صياغة المعايير، ووضع المناهج العلمية، وتحديد طبيعة الأنساق المعرفية المعرفية عند إنتاج الخطاب الإبداعي المؤسس على قواعد لغوية متينة، وحسبي أن اللغة التي نصيغها في نتاجاتنا الإبداعية ليست مجرد تراكيب جملية نتداولها للتفاهم والتذوق، غير أنها تمتاز بأبعاد شفافة تتجاوز سحر المحسوس والدلالي والتعاملي، وترتقي صوب لغة تفصح عن المستور السراني لقوانين الطبيعة، وتزيل الملاءات التي تحجب خلفها وجوه الحياة النضيرة، وتفرز الأبنية

40- فرديناند سوسير "علم اللغة العام" تر. يوئيل يوسف عزيز - ص١٣٤.

القانونية والأنظمة المحركة لظواهر الطبيعة في الوحدات الكلية المتعشقة عبر مفاهيم الكشوف العلمية، وتُفصح عن منظومة القيم في الأبنية الجمالية المتناسجة عبر مفاهيم الخلق الفني والجمالي، فتكسبنا مفاهيم جمالية ومعرفية تُعجل من سرعة حركة التحولات الفكرية المجتمعية، وباعتبار أن علم اللغة يعنى بأهم القيم التعبيرية والأنظمة الرصينة التي تفصح عن مكنون الجمال، فيمكن القول تأسيساً على ذلك، أنه يتم تحديد القيمة الجمالية تبعاً لقدرات اللغة على التعبير الكلي والتام عن الشيء، ومن ذا انبرى الباحثون في اللغة يتطلعون إلى تأسيس علم اللغة النظري الذي بدوره يؤسس علم جمال وضعي يناظره من طرف، ويحايث منظومة العلوم التجريبية من طرف ثانٍ، فتمسي اللغة الحامل (Venicl) لمنظومة العلوم الجمالية المحمولة (Tenor).

التقنات الجمالية في فن النصّ

إن الوعي التاريخي للغة، ساق الفكر (Intelligence) إلى البحث المعمّق في الأنساق البلاغية والتأويلات النصيّة، فنجم عنه علاقة جدلية (Dialectigue) بين الوعي وأمشاج التراث، وبرزت تجليات خطاب المواريث العريقة إلى مستوى راق، الأمر الذي ساعد على فتح أقنية ما كانت تخطر على بال في فلسفة القيم الجمالية في الخلق الإبداعي، وصارت شمولية الوعي اللغوي خارج حدود الذات، وتجاوزت أُطر الفهم والتعبير والتجربة، وتصعدت إلى مستوى الخلق والتجديد في المبنى والمعنى والفهم'والفعل التاريخي، وفي الوقت نفسه، تغدو ظاهرة التناص (Interexualite) قابلة للتأويل والإسقاط والعمومية والمعاصرة للانفتاح على تجربة الآخر، على عكس ما وقع في ظن المفكر البنيوي "بارت" بقوله: "إن الأدب ليس سوى لغة، أي نظام من العلاقات، ووجوده ليس في رسالته بل في هذا النظام"[٤١].

يتوضح جلياً من قول بارت أن أي فن إبداعي مجرد لغة قالبية جامدة مركبة وفق صياغات حسنة تخضع لمهارات فنية ليس إلا، فيضل ضمن منطق الفن الصوري ويجرده من محتواه الدلالي، وينفي القيمة الجمالية

41- "بلاغة الخطاب وعلم النص" د. صلاح فضل – عالم المعرفة – عدد /١٦٤/ ص٤٨.

والمعرفية والنفعية والتاريخية ويقول أيضاً أحد الشكلانيين الروس "شكلوفسكي": "إن غاية الفن أن يمنحنا إحساساً بالشيء كما يرى، لا كما يُعرف"(٤٢).

إن علم الجمال اللغوي يطرح في أبحاثه جملة مستويات منفتحة على مظاهر الخلق الإبداعي المنتظمة في مساقات الخطابات البنيوية الدالة التي تتوهج حمأة نزعة المحاكاة والتواصلية لتجسير ضفتي الانهدام الحاصل بين الذات والواقع، وهنا تنتفي ظاهرة العزل أو النديّة أو التناظرية وحتى التناقض وما يماثلها من مفاهيم تخص إعادة اللُحمة بين متقابلين لهما نفس الخواص، وإدخالهما في حركة النظام الطبيعي، والشأن نفسه ينطبق على وحدة البرهان في خطاب بلاغي، وعلى حديّه، حدحجة الظاهر البلاغي بما تتضمنه من التقنات الجمالية في فن النص، وحدحجة الباطن البلاغي بما تتضمنه من الدلالات الجمالية في معاني النص، وهنا يبلغ الخطاب درجة الاكتمال بذاته، ويحقق رعشة الذوق والفهم معاً، يقول (ج.لوزونو): "النص هو القول المكتفي بذاته، المكتمل في دلالته"(٤٣).

لكل خطاب خاصية حجة (Argument) تسوّغ مفهوم الدلالة والحجة هي المعيار (Norm) الذي يبين مدى تأثير القيمة في حالات التداول (Prgmatigue) الخطابي، أو في التعبير (Prononce) أو الحوار (Discours) أو الحجة (Argument) مستبطنة في مصاغ النص الذي يشتمل على الوحدة الكلية لأنساق المعاني، وليست الحجة مضمرة في خصائص الشكل الفني للخطاب من حيث أنها تقليد بلاغي وإنما متضمنة في جوهر الدلالة المعانية، من حيث

42- روبرت شولز "البنيوية في الأدب" تر. حنا عبود – منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق ص١٠٠.

43- مجلة المعرفة السورية – العدد /٤٥١/ نيسان /٢٠٠١/م عن بحث لنهلة الأحمد "ما هو النص" ص٩١.

أنها وعي عقلاني، وأعني في قولي أن الحجة ليست في اللغة وإنما في الوعي اللغوي الذي يقوم على تثبيت صحة الموافقة عبر المقولة أو المصاغ، ودقة توصيل المآل، والقدرة على الإقناع بالمقاصد، وبذلك تغدو الحجة قيمة جمالية فضلاً عن كونها قيمة معرفية. كثير من النصوص تضمنت حججاً عقلية صارمة عبر أحوال وظروف وأزمان، بيد أنها خضعت بالضرورة إلى حركة المتغيرات التطويرية كونها مقولات معرفية ظلت ضمن نطاق الفرضية أو الرؤى النسبية غير الجامدة وغير المطلقة، ومن جهة مقابلة، أرى أن الوعي القيمي وإن كان خاصية مستبطنة في النسق اللغوي، فإنه لا يمكن الإفصاح عنه إلا بالحجة الجمالية المتصفة بقوة البلاغة في التقاليد البيانية الرفيعة، وبناء على ما سبق عرضه نخرج بحصيلة منطقية مفادها، أنه ينجم عن الوعي اللغوي معياران متطابقان، معيار جمالي بلاغي، ومعيار معرفي عقلاني. إن حجب الحرية في الفعل الإبداعي، يعيق الحجة في التعبير الصريح عن جملة من حقائق مسكوت عنها أو مستترة أو محجوبة أو...إلخ. ومن المفيد القول في أن ثقل الحجة يرتكز على قاعدة من الإشباع المنطقي في نسيج المصاغات لدن أي جنس لغوي تعبيري، غير أن ما يهمنا من وحدة النص، ليست وظيفته التي تتولى توزيع نظام اللغة فيه، وكشف العلامة "السيمولوجية" (Semanalogyse) بجلّى أبعادها، بقدر ما يهمنا من إنتاج كلام يحرر قدراته الفاعلة، ويضفي على المتحولات (Metamorphose) تحولاً ديناميكياً منفتحاً على الفكر والجمال والمعارف والمنافع، وليس المهم التعدد الأسلوبي بقدر التعدد (Pluriels) الدلالي الذي يفصح عن مكامن الحقائق وتمثلها في الحياة. قد ينغلق النص على ذاته، لكنه يتملك حيناً اكتمالاً ذاتياً رغم الخصوصية التي تتضمنها التجربة الفردانية ويغدو

الخطاب خارج التعددية، شريطة أن تكون جملة المفاهيم القولية في الوعي اللغوي تامة في ذاتها، وكلانية في دلالاتها المعانية كونها قيمة معرفية، وهنا يتحقق "ميكانيزم" النص لغوياً، وبالمقابل يتحقق النص معرفياً.

إن وظائف القياس (Analogie) سواء في تنافر أو تطابق الأبنية في الخطابات البلاغية تسهم إلى درجة كبيرة في تأسيس علم لغوي يرفع من شأنها وينميها ويزيد من الأدوات والأساليب الإبداعية، ويفصح عن قيم جمالية فاتنة، وتغدو الوظائف قيماً متجسدة في البناء النصّي، لا طرائق أو رموز أو دلالات شكلانية في الظاهرة الفنية لمصاغات الخطاب، وصحيح أن رؤيتنا لمفهوم اللغة الإنسانية وتعريفها بأنها منطوق صوتي يعبر عن معنى أو إشارة (Sembole) أو ترمز إلى دال، وكتابة تتضمن مفهوماً وصورة (Lamge) تجسد كائناً ينتجها الوعي العقلاني في أبعاد تخاطبية متعددة الأنماط، بيد أنها تختزن في مظاناتها قيماً جمالية ومعرفية وإمتاعية وتحولات حضارية ومدنية ساحرة، يقول ابن جني في كتابه الخصائص: "رب إشارة أبلغ من عبارة" كلامه بديهي لا يحتاج إلى تعليق أو تفسير، فهذا القول المختصر في كلماته البالغ في معانيه ومراميه، يثير جدلاً فلسفياً متعدد الرؤى، وعندي رؤية سبق أن وضحتها في سياق البحث الذي نحن بشأنه، وتطرقت إلى موضوع الشكل "الدال" بالجوهر "المدلول" أو ما أطلق عليه بـ "المشير" و"المشار إليه". بطبيعة الحال، فإن أية إشارة تعبيرية، حكماً تدل إلى معنى مراد، ولا مندوحة، أن الإشارة سواء كانت حركة أم خطاً أم صوتاً أم لوناً.. هو دال "مشار" يسبق المدلول "المشار إليه" والتلقي عن طريق أحد الحواس (عين، أذن...) العاكسة لماهية المشار، يتعامل مع الوعي العقلاني كمفهوم مُدرك له معنى مشار إليه، ونحن نرى أن الإشارة مجرد حركة حسية يتلقاها الوعي،

كمفهوم مُدرك له معنى ما، والقيمة التي تتبع حالة ما إذا كان المفهوم قبيحاً بسيطاً أم جميلاً مركباً، كاملاً أم منقوصاً، المهم أنه يشير إلى معنى ما يعتمل داخل الوعي الإشاري، نظراً لكونها لغة دوال متعارف عليها، واختصر قولي مبيناً أن الإشارة دال وعيوي محفوظ في إحدى وحدات التخزين العقلي، وقد صار لغة متعارفاً عليها، وبصفته معنى ثابتاً في عملية التفاهم، ما يقول سوسير: "اللغة نظام من العلاقات، والعلاقة هي اتحاد بين شكل دال (Signifiant) وفكرة يدل عليها تسمى المدلول (Signifie)"[٤٤].

طبيعي، كي يكون التعبير مفهوماً يشترط وجود إشارات أو علاقات أو رموز أو حركات دالة، لكن ليس من الضرورة بمكان وجود أنظمة وقواعد بلاغية ونحوية واشتقاقية وتأويلية...إلخ. والتعبير الذي يعتمل في الذات يسبق أي شكل من أشكال العلاقات الدالة على شيء ما، ولا شك في أن اللغة أداة مكتسبة أبدعها الإنسان لتلبية حاجة عن التعبير عمّا تراود ذهنه من خواطر، وتخالج صدره من مشاعر، ونحن هنا نخالف رأي كللر بقوله: "ليس للأفكار وجود سابق، كما أنه ليس هناك شيء واضح قبل ظهور اللغة"[٤٥].

إن الوعي والشعور بالوعي سابق على أي إشارة لغوية، ولا أعتقد بأن أية إبانة تفصح عن أية فكرة، هي بالضرورة انعكاس وعيوي مصدره عقلنة إنسانية ولا ترتبط الإبانة بالوعي إلا لكونها وسيلة تعبير عقلاني، ومن حيث أن الإبانة اسم دال متعارف عليه في حياتنا الاجتماعية التقليدية، وتظل اللغة

44- جوناثان كللر "أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلاقات" تر. عز الدين اسماعيل – ص٧٢ – القاهرة.

45- د. عبد العزيز حموده "مرايا مقعرة" ص١٠٥ – سلسلة عالم المعرفة – العدد /٢٢١/ الكويت.

شكلاً سطحياً عندما يعبر عن جوهر الفكرة المطلوبة، لذا فإن أي إفصاح هو وسيلة دالة إلى وعي غاية مدلولة، وبعبارة أوضح، إن الإفصاح وعي دلالي معبر عن أفكار عقلانية مدلولة، وحسبي يظل الفكر مرتهناً بتوفر وسيلة الإيصال الفكري وينبغي أن نعلم، أن علم اللغة لا يدرس اللغة كأداة إيصال، وإنما كمعنى إفصاحي عن شيء ما له قيمته يعتمل داخل الذات، وهنا يتطلب الإشارة إلى أن اللغة منظومة ألفاظ ثابتة المعاني، لكنها متحوّلة الصياغات البنائية، ترتبط بـ "زمكانية" (Spation Temporel) الحدث، دالة إلى حقائق قيمية، وهنا نخالف أيضاً مقولة سوسير: "في نظام اللغة ليس هناك سوى اختلافات، ولا وجود معها لألفاظ ثابتة الدلالة"[٤٦].

طبعاً لا ترتبط الإبانة الدالة بالفكرة المدلولة إلا في حالة التعبير الذي نعتبره محمول الدال، أو وسيط دلالي، فإشارة من إصبعك تدعو إليك أحداً، حركة دالة إلى مدلول الاستدعاء، وإصبعك حامل أو وسيط معبر عن مدلول الدعوة، لذلك لا يرتبط الدال بالمدلول إلا بحامل هو التعبير، فالإشارة سواء كانت حركة أم صوتاً أم لفظة..إلخ أداة عرفية دالة تُستخدم في حياتنا التقليدية لتنظيم علاقات التفاهم الإنساني، أما الفكرة، فهي الحكم على مداليل متخلفة في حياتنا المتجددة التي تنظم علاقاتنا العقلانية على أساس من القيم العليا، فلفظة "ماء" مكوّنة من ثلاثة حروف أو رموز مركبة، غير أن كلمة الماء ذات معنى لها تصورها الذهني المسبق في معملية الوعي، ولها مفاهيمها المتعلقة بالحاجة والنفع والغريزة، ولها لونها وحجمها وتراكيبها، أما العلاقة الثنائية بين الدال "لفظة" ومدلول "معنى" فإنها تفرز رابط دلالي

46- كللر "أصول اللسانيات الحديثة" تر. عز الدين اسماعيل.

هو "الحامل" أي التعبير يقول الجاحظ: "وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان في وصفه"[47].

قد نتلقى في الظروف الموضوعية الأشد انغلاقاً، إبداعاً ذاتياً أشد انغلاقاً، الأمر الذي ينجم عنها معوّقات تحول دون نمو (Dynamigue) اللغة والبيان والثقافة، حيث تفقد الكلمة معناها وتأثيرها وقيمتها المعرفية والجمالية. يجدر بنا أن نميز بين دارس لغوي في نظرية الشكل الفني التطبيقي للتقنات البلاغية وأصنافها (البنى، التراكيب، الصياغات، القواعد النحوية، الإشارات، الرموز، المجازات، السياقات، الوحدات، القياس، البارهين...إلخ) ودارس لغوي في علم مظانات القول (معاني، مفاهيم، دلالات، قيم، معارف، جمال، حقائق، قوانين...إلخ) وبيان وجه العلاقة التداولية (Pargmatigue) بين مؤثرات الجذب، وأحكام القيم، فالمؤثرات الجمالية في محتوى النص، لا تعد ذات قيمة ما لم تؤثر في وعي المتلقي جمالياً ومعرفياً، فالتفاعل بين المؤشر والقيمة شرط لازم في العملية الإبداعية. طُرحت نظريات عديدة تعزل الشعور الإدراكي عند المتلقي عن المؤثر البلاغي، أي عزل رد فعل المتلقي إزاء القيمة، فتأثر القيمة التداولية التي تُحدثها داخل النفس كمؤثر، والاستجابة الإيجابية لها كرد فعل متأثر هو ما نرمي إليه في إنتاج نص سوي وفعال في حياتنا الروحية والنفسية والفكرية والثقافية، نص بحق يعبر عن كلية متناغمة وانطباق بين الظاهر الفني والمحتوى الدلالي، بين المؤثر الجمالي والمؤثر الوجداني، بين التأثير الحسي والتأثير العقلاني. يتبين مما تقدم ذكره في موضوعة التأثير، أن

47- أبو الفرج الأصفهاني "الأغاني" ج٤ – ص١٢٥٠.

تداولية أي خطاب تعبيري، لا يأخذ اتجاهاً فردانياً في تداولية التأثير وإنما يأخذ ازدواجية انطباقية بين مؤثر ومتأثر في معظم مناهج الدراسات وأنماط البحوث اللغوية، على صعيدي الدراسات النظرية والدراسات العلمية للشكل الفني البلاغي والمضمون القيمي الجمالي، والقول في عدمية الارتباط الإبداعي بين القيمة المعانية والتقنات اللغوية، هو نفي كلي للخصائص التعبيرية باعتبارها المكنة التي تنتج الأبعاد المعانية للنص، والتقنات وما يندرج في طيات ملفها من عمليات "سيمولوجية" هي علم ينتج الأنماط الدالة في النصوص الإبداعية (Sciencedutexte)، ويحسن بنا أن نفهم أنه لا يتم اكتمال النظام البنيوي للنص دون شموله الشروط الوظيفية والتاريخية والمعايير العقلية والقوانين البلاغية، والقيم الجمالية، والأسس المعرفية، والنوازع الوجدانية...إلخ. هذه الشروط تشكل المنظومة النصيّة (Textnlity) المكوّنة لبلاغة الخطاب المتكامل في شكله التقني ومضمونه القيمي، وتفضي هذه المقولة إلى نتيجة يحسن بنا استيعابها والعمل عليها عند معالجاتنا قضايانا العامة.

ظاهرة التوليد اللغوي في المساقات التاريخية

إن نظرية اللغة في شكلها الفني ومضمونها العلماني التي تعتني بالتطورات الفكرية، ومسائل الحرية، وثقافة الجماهير، وبناء عالم جميل وسيعد وآمن، إن واجباً سامياً تقتضيه الإرادة الحرّة، ينبغي القيام به بتفانٍ لجعل الوعي اللغوي أحد أهم العلوم المنفتحة على الحياة العقلانية للذات الإناسية والمحيط المعاش، هذا من ناحية الفعل كشكل، أما من ناحية الفعل كمضمون، فإننا نرى أن اللغة ليست موضوع دراسة "تقنية" فحسب، وإنما باتت ضرورة معرفية لاكتشاف أهم قوانينها ونظمها ودلالاتها وتأويلاتها ومغازيها وطرائق تداولها، واستنباط قيمها الجمالية، ووصف حركة تاريخ المفهوم، هذا من جهة، وتوخي سبل الدراسات التحليلية النفسية (السيكولوجية) والاجتماعية (الأنثربولوجية) المتلازمتين في عمليات التخلقات التعبيرية معرفياًو جمالياً من جهة ثانية. كثير ما تتخلّق خطابات منغلقة على الذات، تتميز بخصوصية متفردة في رؤيتها وتجربتها، غير أن هذا اللون من أنماط الطبائع الإبداعية، لا يعني بأية حال، ذات طبيعة متغربة أو معزولة عن السياق العام للحياة الثقافية والنفسية والاجتماعية لكننا نلغي مفارقات فردية راقية وبديعة، تغدو بعضها تجربة أنموذجية، (Modele) يحتذى بها حيناً.

لا يُفهم من أية كلمة أو نغمة أو لون أو صوت أو خط... إلخ دلالة أو معنى أو بُعداً جمالياً سواء في ظاهرها أم جوهرها، ما لم تتفاعل مع سياق متكامل البنية ولحظة زمنية متوافقة.

إن فلسفة التطهير ( ) في نظر أرسطو تأخذ مجالات حيوية واسعة في الفعل (Suget) الإنساني، وعلى مستوييه العملي والنظري، وقد نحسب لفظة تطهير، مفردة محددة المعنى، لكنها مفتوحة الدلالة، وتقبل التأويل والتناسلية، وتستثمر في مجمل النشاطات الإنسانية، سواء في الإنتاج الذهني أم المهني أن العلمي أم الأدبي أم الفني أم الأخلاقي، ويصدق بالقطع أن التطهير في فنون القول حالة لا بد منها من أجل تحقيق التوازن والسوية عند المشتغلين في حقول الإبداع على مختلف أنواعها وأجناسها وأشكالها، ولا غرْو في أن اللغة كوعي، هي أكثر علاقة بمسألة التطهير، وأشد ما يتجلّى فعاليتها في الأعماق النفسية والذهنية لدى الإنسان، إذ تتولى مهمة تصريف القلق والتوتر وتخفيف حدّة المشاغلات الذهنية واحتدام الخواطر والهواجس والانسراح التخييلي...إلخ. فالمفكر والأديب والفنان يتخذ من الإبداع قناة تصريف لكل ما يخالج النفس من مشاعر ويتعاور الذهن من أفكار، وما ينطبق على المبدع من تطهير ينسحب على المتلقي أيضاً، فسماع شعر أو أغنية أو لحن موسيقا أو لوحة فاتنة أو طبيعة خلابة أو مشهد مسرحي مؤثر.. فإنه يتفاعل مع التعابير الأشد مساساً بما يعانيه المتلقي أو ما يخامره أو يحسه داخل نفسه المتوثبة، وبالتأكيد، فإن أي خطاب لا ينتمي إلى الواقع الموضوعي هو ضرب من العبث، ولا يتصف بأي معيار أخلاقي، وشطط من الخيال، لذلك تتولى اللغة تفجير الطاقة التعبيرية المتجسدة في سياقات البنى البلاغية، وليس أمعن في الخطأ من القول في أن الإبداع بمختلف أساليبه

ومزاياه وتعابيره وخواصه تبعث الروح الوهاجة في اللغة، وحسبنا أن اللغة كائن حي سرمدي لا يموت، بيد أن اللغة تغتني بالفكر الخلاق، والخيال المتألق، والتعبير الجمالي، ومنظومة المعارف، وبدورها تكسبنا ثروة لغوية، ووعياً جمالياً، ومخزوناً معرفياً إضافياً، وإن جاز القول، يستفيض من رحمها الحي الخصب كائناً لغوياً حياً آخر، فتغدو الأسرة اللغوية عصبة مؤثرة، لا بل مجتمعاً يتخلّق باطراد، وتجدر الإشارة إلى أن اللغة لا تتغير (Amityal) كما يخالها البعض، لكنها تتخلّق، وهذا ما يفسر حقيقة ظاهرة التوالدية التي سبق أن تحدثنا عنها في موضوعة (التوالدية في المباني اللغوية).

لا شك، ترتبط ظاهرة التوليد اللغوي بالمساقات التاريخية، ما دام هناك إنسان ولغة وزمن وفعل، فالتاريخ واللغة حالة ذاتية بحتة يحياها الإنسان على تباين مراحله التاريخية، ليس من ناحية أن اللغة رمز أو إشارة تعبيرية فحسب، وإنما هي منطق عقلاني يرتبط بالتفكير الفلسفي والبحث المعرفي، لقد التفت الفلاسفة الأقدمين إلى فلسفة اللغة، فشرعوا يبحثون ويدرسون خواصها وأبنيتها وأنساقها ودلالاتها من عهد سقراط (Socrate) /٤٧٠- ٣٩٩/ ق.م إلى عهد تشومسكي (Chomsky) / - / م آخر فيلسوف لغوي حداثي في علم اللسانيات، لذا نتمكن م القول في أن الذين يمتحون من اللحظات التاريخية معارفهم، هم الذين يضعون الوعي اللغوي في سياق التحولات الخلاقة، وفي حسابنا، نرى أنه من غير الممكن بالقطع أن يجري الوعي التاريخي إلا في سرير الوعي اللغوي، ولا تخصب ضفتيه إلا بوعي الحاضر الذي يجسد الوجود الحقيقي، ويحدد حركته، ولا يعني بتاتاً، أن تجاوز ذخائر الماضي لغوياً ومعرفياً هو تخلٍ عن مواريثنا، وأقصد

بالتجاوز، هو التخلّق اللغوي والمعاني، ونؤكد هنا على أن الماضي متضمن في وعاء الحاضر الذي يصبح أُكل المستقبل، يقول ياسبرز: "إن قدرتنا على الإبداع تكمن في قدرتنا على إعادة توليد الأفكار التي تلقيناها عبر التاريخ"(٤٨).

إن وعي لحظات الجمال اللغوي لا تنعزل عن صنواتها في أية لحظة تاريخية، وتحت أي ظرف زمني، وفي تقديرنا، ما من لحظة زمنية في سيرورة الحياة إلا وتنطوي على لحظة متجددة، أشبه بالماء المنساب، والقول، أن حركة التاريخ بما تحتوي لحظاتها من بنى، وعلى مختلف أجناسها، تتعرض إلى التقدم تارة، وإلى التخلف تارة أخرى، رؤية باطلة وفارغة، لكن يمكن القول، أن الحركة معرضة حيناً لأن تصاب بما يشبه الجمود، غير أنها تتواصل في حركتها ونموها، وحيناً تقفز أشواطاً نحو الأمام لتشكل مرحلة ناضجة ومتميزة عن مثيلاتها بذات السياق المتلون، ويحدث أن تتواءم وتتطابق الظروف في مرحلة ما بعد مراحل من السكونية، فتلفظ من أحداثها رؤى وأفكاراً حية إلى سطحها فتستكمل لحظات المرحلة بناها الفنية والفكرية والمعرفية، وتتمخض المرحلة لتلد عباقرة وقادة يتولون قيادة المجتمع.

إن دعوة التخلي عن تجارب أسلافنا، ونسف التراث بدعوة الحداثة، هي دعوة إلى الموت لا جرم، وتعطيل الفكر والإبداع والتجدد، ومحاولة يائسة لإفراغ التاريخ من قداسته، وأجد أن من الخليق بنا الوقوف عند هذه القضية المقلقة، وحري بنا التأكيد على أن الوعي الإنساني لكل ما تم إنجازه عبر اللحظات التاريخية هو وعي المفارقات الزمنية بينها، بعث وتخليد لها، وإحياء

48- ياسبرز "المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية" ص٦ – مجموعة من الأساتذة – المغرب.

لإنساننا الماضي داخل إنساننا الحاضر على نحو يضمن استمرارية حياتنا الإبداعية، وتسمح لنا تخليد أنفسنا من خلال ذلك الاستيعاب والتضمن، يجدر التنويه إلى مسألة جد حساسة، أنه ليس هنالك في الحقيقة أزمان مستقلة، ولحظات مغايرة في الزمن اللغوي، أعني في سياق التاريخ اللغوي وبناه، وليس هنالك أبعاد زمنية كمن رأى واجتهد في تجريدها وتصنيفها إلى بُعد ماض وبُعد حاضر وبُعد مستقبلي، فأزعم أن الزمن اللغوي واحد في لحظة تاريخية من لحظات مساقات التخلق، إذ أن كل لحظة تخلّق حاضرة، تتضمن لحظات التخلُّق الماضية، ولعلها تتطلع إلى لحظات التخلّق المستقبلية، ولا تخرج عن إطار الزمن الذي يمتلك القيمة اللحظوية في أي تجربة إبداعية، يقول كل من المفكرين زدستاف وكاكوفسكي: "من الانفتاح على المستقبل نتحوّل إلى الماضي لتحصل منه على التجارب الضرورية للحاضر، وفي هذه الحالة يدخل الماضي حياتنا بشكل مباشر وبطريقة أداتية كتجربة ضرورية لحياتنا الحاضرة الخلاقة"(٤٩).

إذا رجعنا إلى لغة الرسالات السماوية، فإننا نجد تحولات معرفية وثقافية وحضارية تضفي على الوعي اللغوي وعياً قيمياً حداثياً، فقد تجلّى الترميز الدلالي في تراكيب النصوص المقدسة مفاهيماً، لا بل أحكاماً عقلانية معقدة، فجعل النصوص الروحية متعالية، وأكسبها حُلّة قدسية ذات إهاب رفيع، كما رآها كثير من المفكرين المشتغلين في فلسفة اللاهوت أنها انعكاس سماوي من الوعي الأعلى إلى الوعي الأدنى، ورآها الفلاسفة الماديين أنها ظاهرة انعكاس (Reelection) من الوعي الأدنى إلى الوعي

49- زدستاف وكاكوفسكي "الفضاء الزمني في الحياة الإناسية" ص٧٠.

الأعلى -تعبير عن طرائق البحث عن الخالق الأعظم المتجلي في التخلقات الكونية- وآخرون أرجعوها إلى عملية تجل منعكس من داخل الذات الإناسية نتيجة لمشاغلة الوعي بظواهر الوجود المدهش، وآخرون رأوا فيها انعكاساً من عالم الطبيعة الخارجية نحو عالم الطبيعة الذاتية الجاهلة بظواهر الحياة..ورأى آخرى..إلخ.

نحن لا ننفي هذه الرؤى التي شاغلت الذهن الإنساني، وتخلقت عنها خطابات لغوية تضمنت جملة مفاهيم استقرأت (Inductibve) الواقع، وتميزت في تفردها الرؤيوي، كما لا يخالجنا شك في النظر إلى ما طرحته من مقولات جادة اقتربت نوعاً ما من صحيح الحقائق، بيد أنها غفلت عن حقيقة، ولا أدري ما إذا كانت قد تجاهلت أن الوجود في حقيقة كينونته وحدة كلية متجانسة متكاملة (Nenologigue) في لحظاتها، الجزء فيه وحدة كلية في حد ذاته، والكل فيه وحدة جزائية في حد ذاته، وأن القاسم المشترك بينهما الوحدة، أي وحدة الذات التي تشكل التجانس (Similarite) المتكامل في بنية الوجود فعندما يتجلى الجزء يتجلى الكل تلقائياً بحكم الضرورة، والعكس صحيح.

إن للفهم بعداً دلالياً ندعوه بالبعد المعرفي المحكوم بشرطي الزمان والمكان، وبعداً دلالياً معرفياً لا زمنياً متحرراً من مشروطية المكان والزمان، وتتفرع عن هذا البعد المنفتح أبعاد تعتمد على مقولات تأويلية وافتراضية وتخييلية واحتمالية، وبراهين عقلية متعلقة باليقين المعرفي الذي ندعوه اصطلاحاً بالبعد الدلالي المقدس. وتصبح الذات اللغوية المتطابقة مع علوم اليقين المعرفي ذاتاً إطلاقية في لميّة الحقائق المتجسدة في تخلقاتنا الاستبطانية في حالات النزوع الروحي، وهنا تغدو أعم مفاهيم اللغة في

أبعادها الدالة إلى الروح المتعالية في الثابت الإيقاني حقائق تثبت أن الوجود في المصاغ اللغوي قيمة جمالية ومعرفية وتشريعية واستشراقية، فالوجود واحد في وحدة الوعي اللغوي. له بُعد دلالي زماني عياني، وبعد دلالي زماني غير عياني، والعياني متناسل عن الوعي اللاعياني، وبهذا يُمسي الوجود لغة خطاب اللاعياني المتعالي أما الانفلات من إسار المعنى الدلالي للمقدس في معرض حديثنا عن لغة السماء أو المتعالي، بغية التخلص من قيود التقاليد الأزلية لممارسة الأنماط الأسطورية، وخلق زمن متحرر من تأثيراتها، فهذا اعتقاد خاطئ، يظلل الفكر ويُخرجه من دائرة الزمن والتاريخ، وبالتالي يُقصي كثيراً ممن يعتقدون بفاعلية المقدس في حياتهم الداخلية والعملية عن حياتهم الروحية المتوازنة، ويتمسكون بالمعنى الدلالي للمقدس عن قناعة صارمة وإرادة تامة في أن ممارسة المقدس هي ممارسة لإحياء المعتقد، وتواصل لحركة التاريخ، وتجسيد للتجربة الروحية، وتخلّق للتراث، وناظم للبنى الثقافية، والمحافظة على الوجود الإنساني، منطلقين من قناعة راسخة في أن الإنساني كائن عقلاني، خُلق في أحسن تقويم، ويتطلع إلى بناء عالم فاضل، والحقيقة أن كلّ هذه النزوعات تمثل الملكات الروحيّة الساكنة في مظان النفس التواقة نحو رموز المقدس التي تمثل جوهر ثقافتها وشرعتها، وضابط زمنها، ومحرك تاريخها، والوعي اللغوي بوصفه رموز مقدسة، هو لغة الله التي استفاضت عن روحه المتعالية فما هي لغة المقدس في الدلالات الروحية الاعتقادية التي تمثل جوهر الخطاب الإلهي؟ لا تثريب في أن لغة المقدس مكوّنة من معايير جمالية فاضلة وذات قيمة، وتأتي القدسية للمعايير من جهة إطلاقيتها (Minisme) وهنا لا يعني الإطلاق معياراً محدد المفهوم، ولا مقياساً محدد القيمة، نظراً لكون الإطلاقي يمتلك خاصة تجلٍ مفتوح،

فبذا فإنه يمتلك القدرة على التوالد من ذاته (Subgectivation)، ومن المعلوم لدينا أن لغة القيم تخضع لمعايير التجدد والامتداد حسب أحوال المجتمعات وثقافاتهم ومعتقداتهم وصنائعهم ومشاعرهم، ومن شروط اللغة في الحياة، تضمنها لأعم المفاهيم الأخلاقية الفاضلة التي تجعل من الفكر متعالياً تحت أي زمان أو مكان، ومن الصعوبة بمكان تحديد ماهيات المفاهيم الجمالية التي تتناولها اللغة عبر التاريخ، والإجابة على كافة التساؤلات والإحساسات والرؤى سواء كانت عيانية أم غير عيانية، لكننا نستطيع أن نحلل الخصائص الجمالية ونصنّف قيمها، ونقيس أبعاد التجربة الجمالية على الواقع، والقول في أن اللغة والفعل يعبران عن الكمال الطبيعي أو التعالي الروحي، كلام لا يحمل أي مصداقية، ولا غَرْو في أن المبدع يستمد مواضيع أعماله الفنية والمعرفية والجمالية من الواقع الموضوعي، وحقائق الذات على حد سواء، ومن جهة مقابلة، فإن الإبداع الذي لا يتطابق مع حقائق الواقع، لا يُعد خلقاً جمالياً معبراً عن جمال الذات المتساجلة مع جمال الواقع الطبيعي والاجتماعي، ومن هنا يغدو الوعي اللغوي الذي يعبر عن فهم الإنسان لذاته والعالم المحيط به، هو فهم للنواظم الجدلية في عمليات التطور الذهني والضوابط الاجتماعية والعرفية والأصول الجمالية والروحية والفكرية التي تؤسس عُرى وثقى بين الإنسان والواقع، وتعمل على تضييق فضاء هوّة الاغتراب (Alienato) بينهما حتى وإن اختلفت جميع نواظم وقواعد العمل الإبداعي عن قوانين الطبيعة.

نحن لا نختلف في أن الجمال الفني الذي يصيغه الفنان أو الأديب أو المفكر أو المخترع يتماثل أو يتشابه أو يحايث الجمال الخلقاني من حيث الصورة، لكنه لا يتصف ذلك الجمال الفاتن بخواص الحياة الطبيعية

الحقّة، يمكن اعتباره تشبيه للحياة التي نفخ الإله روحه المتجلية في ثنياتها. قد يتجاوز جمال الزهرة الاصطناعية الجمال الإلهي في الزهرة الطبيعية، بيد أنها لا تحمل خواص الحياة الطبيعية التي فطرها الوعي الجمالي الإلهي في نسغها، لذلك يظلُّ التخلُّق الإبداعي تقليداً لفتون الحياة بمشبهات ساكنة صامتة لا حياة فيها، لكن الإبداع الجمالي الإنساني الذي يحاكي الحياة، يظل السبيل الوحيد إلى فهم قوانين الطبيعة ومعادلاتها وقيمها، بحيث يصبح التخلّق الإنساني بحجم جمال الواقع المعاش، وتحقيق الغاية التي يتطلع إليها الوعي الفني في التوازن والسوية مع معطياتها. سأتعرض لظاهرتين، أرى من اللازم علينا ذكرهما في هذا السياق لما لهما من شديد الصلة وعميق العلاقة في عملية التخلُّق الإبداعي الجمالي، إحداها: الجدل اللغوي وثانيتها: الأصل اللغوي.

إن طبيعة الجدل اللغوي تمنح المفهوم عبر سيرورة التنامي معنى حقيقياً وفاعلاً في حياتنا الإنسانية، وتعبر عن الوحدة العضوية في ذاتها، وعلى مختلف تنوعاتها، لكنها حالما تصاب اللغة في مرض السكونية، فإنها تفقد محتواها الذاتي وتتفكك عُرى علاقاتها مع المحيط المعاش، ما تلبث أن تتوقف لحظات الخلق وتؤول إلى العدم، ويتوجب أن تأخذ بعين الاعتبار أن اللغة لا تعرف في جدلها معنى النقائضية في عمليات الخلق والتحوّل، بل هي المنهج الذي يستنطق القيم الفاعلة، ويتخلق في حالات الامتداد الحيوي في الإبداعات الحداثية، ولكل وحدة عضوية ظاهر وباطن، فإذا اعتبرنا أن اللفظة شكل ظاهر، فإنما هي أيضاً جزء من كل لغوي، والتركيب الإبداعي يمنح الألفاظ معان تستبطن وعياً جوانياً، والحركة داخل الذات اللغوية تمثل في حقيقتها الجدل الفكراني في سائر أنواعه، بذا يغدو الجدل اللغوي وعياً

للواقع المادي وامتداداً للحظات الخلق المتجددة، وليس للجدل بمكان في علاقة بالرؤى التي تنسبه إليها، إذ أن جوهره يتعامل مع المنطق العقلاني بوصفه قيمة معرفية وجمالية.

يبدو واضحاً من خلال الملاحظة المتفحصة أن في حركة ارتقاء الوعي اللغوي وتطور لحظات الخلق الإبداعي تأخذ اللغة دلالات ومعان في مختلف مجالات التفكير العقلاني.

لا مندوحة في أن اللغة تتأثر بحضارة المجتمع، وترتقي بارتقاء مجالاتها، وكل ارتقاء يتبع حكماً التعبير ومناحيها، والنظريات التي ترجع أصل اللغة إلى عوامل عدّة من خلال ملاحظاتها عبر مراحل تاريخ التفكير الإنساني، سواء في نشأة اللغة البدائية مروراً باللغات واللهجات البائدة واللغات الحيّة الحديثة، لم تقف على حقائق علمية مثبتة تستند إليها في الدراسات والبحوث التي تُعنى بـ "علم اللغة" "Sciencedulangage" منها النظرية التاريخية والأسطورية والإلهية والطبيعية والدينية والسياسية والجغرافية والعضوية والتلقائية الارتجالية أو الغريزية أو الفطرية أو المكتسبة والنفسية والاجتماعية...إلخ. يقول "دوسو سور": "لولا الحياة الاجتماعية ما كانت اللغات" ولا أجد في الحقيقة من اللغة في شيء كلي وتام لدى اطلاعي على هذه النظريات والأبحاث، فمن ذا يتعين أن نولي الوعي اللغوي قسطاً وافياً من عنايتنا في أعقد قضية تشاغل العقل منذ البدء الأول حتى هذه اللحظات، إذ أجد أن أصل اللغة وعي لغوي متخلق، ولا يعني أن ارتقاء الوعي الجدلي حالة انتقال تلقائي أو غريزي أو آلي لا دخل للمجالات المتشاكلة في تكوين نظام البنية اللغوية، وإنما هو ارتقاء جوهر الدال المعاني ضمن اتحاد عام للرمز اللغوي "Symbbole- signe" وأن عموم هذه الوحدات تكوّن نظاماً قيمياً

توافقياً للوقائع سواء كانت فكرية أم مادية أم روحية، وتشتغل بلميتها على أساس نظام عضوي لا يقبل العزل إلى وحدات عضوية أو تجزيئية "Atomisme".

يقول ليونارد بلومفيلد "Leonard Bloom Field" /١٨٨٧- ١٩٤٩/م عالم لغوي أمريكي الأصل: "إن البرهان على صحة نظرية لا يكمن في انسجامها الداخلي بل في انسجامها مع الوقائع التي تدعي أنها تفسرها"[٥٠].

لعل بلومفيلد قد لامس ثمة شيء من الصواب في صحة البرهان إلا أنه لم يتمكن من الإحاطة بتمام الحقيقة كي يفصح عن عمق مذهبه أو يبرر بوضوح صحة نظريته، ومهما يكن من أمر فإننا لا نجافي حقيقة ما تطرحه النظريات السابقة على الرغم مما تفصلنا عنها أبعاد تاريخية، وهي أننا نجد في البنية الداخلية للنظرية أو المذهب أو الرؤية تناغماً واتساقاً، لكنها لا تتوافق مع حقيقة الأوضاع التي تعانيها من خلال المنظور التفسيري التي درجت العادة عليه لدنَّ كثير من النظريات، وأنه من الخطأ الظن أن النظريات التي أرجعت أصل اللغة إلى حالة أو واقع ماهي البرهان الحتمي والتام على صحة رؤيتها، فكثيراً من الرؤى تجاوزت زمان الحالة ومكان الحدث وتوترت أطيافها لتشكل حضوراً واعياً خارج المجال الحيوي للمرحلة المعاشة، وعلى تنوع الأحوال وتباين المذاهب واختلاف الأوضاع التي تنضوي تحت إرادتها الأجيال المتعاقبة ولا يفوتن بهذا الصدد التنويه إلى أن الوعي اللغوي يرتبط بعاملين جوهريين هما الفكر والتذكر، إلا أن التفاهم يغدو حيناً عبر العلاقات "ترسيمات" (Motivs) -حروف، حركات- إشارات مختلفة-

---

50- جورج مونان "علم اللغة" تر. د. نجيب غزاوي ص١٢٢- وزارة التعليم العالي دمشق.

متجرداً عن الواقع، ويشرع الفكر بإعادة صورة العلامة المتعارف عليها بالدوال لتلقي المعاني المرسلة، فالمُعبِّر يقابله المُعبَّر له الذي بدوره يتلقى المعاني أو المفاهيم أو الدلالات أو الرموز حسب خبرة معرفية سابقة، أما التذكر فهو انطباع صورة "شكل الدال على جدار الفكر" جوهر المدلول وبهذا يرتقي التفاهم إلى درجة أكثر تعقيداً في عملية الوعي اللغوي، غير أنه حين يتجاوز الواقع ينحصر في نطاق المعرفة الذهنية المحضة، يقول حازم القرطاجني /ت ٦٨٤ هـ/ في تعريفه الدلالة المعانية "إنها الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجود في الأعيان"[٥١].

إن اللغة وعي حسي تعتاد الأحاسيس العضوية عليها في إدراك المعاني بوصفها مفاهيم تعبيرية دالة، ويتحوّل الوعي الحسي إلى وعي معرفي، فعلى الرغم من عقلنة البحوث الواقعية "الحسية" ملاحظة واستقراءاً، تأويلاً واستنتاجاً، وتم تحديث علم اللغة وسائلاً ومسائلاً، ظل الوعي اللغوي يحلق في فضاء لغوي ذهني، لكن لا يذهبن بنا الظن إلى أنه ينفصل عن المجتمع أو البيئة أو الجغرافيا أو النفس أو الخيال، ومن الظواهر التي تعمّق بها الباحثون في علم اللغة غلبة المفردات الحسية على المجردة، وهذا دليل على أن الوعي اللغوي لم يكن متطوّراً لدنّ المجتمعات البدائية إذا ما قورنت بالعصور اللاحقة. لقد أرجع معظم الباحثين في علم اللغة قديمهم وحديثهم، أن علم اللغة اجتماعي، وظلت نظرياتهم ضمن إطار العمومية العريضة التي تشمل كلّ المجالات والمؤثرات والنتاجات المجتمعية في حين ينبغي أن يُفهم أن علم اللغة مكوّن من قطبين متوازيين يمتازان بذات القوة هما الوعي واللغة.

كما نسب البعض علم اللغة إلى علم النفس، وخلطوا في رؤاهم بين

51- حازم القرطاجني "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" ص١٨.

الوعي والعقل والفكر والنفس والروح والخيال، وبرزت على سطح الحياة فلسفة علم اللغة النفسي (Psycholiguistics). يقول جيمس ديز: "إن موضوع اللغة يجب أن يتعلق بنوع المقدرة العقلية ووفق هذا المعنى تُعدُّ اللغة موضوعاً نفسياً"[٥٢].

52- جيمس ديز "علم اللغة النفسي" ص٣٥ – ورد في كتاب "في علم اللغة" د. غازي مختار طليمات ص٢٩ – دار طلاس – دمشق.

الوعي اللغوي وعي جمالي بذاته

يتعين أن ينصبّ جُلى اهتمامنا على حقيقة ذات صلة بمعنى وجودنا، وهي مقولة تفيد بأن الوعي اللغوي وعي جمالي بذاته.

بداية ننطلق من معنى اللفظة، فنرى أن اللفظة رمز دال وليست صفة لغوية شكلانية كما يراها البعض، وإنما خاصية لغوية جوهرية، لا سعة في أحد منتجات الوظائف اللغوية التي تعبر عن معنى ما لتحقيق حاجة، ويعتبر الوعي الفني أن الجمال أحد أهم عوامل الإبداع الفني، فالإبداع مفهوم الوعي اللغوي، هو أن كافة التخلقات تخضع بالضرورة إلى نواميس الجمال وقيمه وضوابطه لا إلى الوظائف اللغوية، إذ أن الوعي الجمالي هو علاقة بين وظائف اللغة وجمالي الذات التي تنجم عنهما ما ندعوه بالتجربة الجمالية، وبوصف الإبداع وعي لغوي جمالي ينز من مساقات بنية الروح ويخضع لقابلية التوالد والتوهج والتحوّل وإعادة الإنتاج، فإذن تغدنو اللغة ذات جمالية، وتغدو الذات لغة جمالية في الآن ذاته، وهنا تسقط من الاعتبار مقولة أن اللغة بكل أشكالها وأجناسها وسيلة لتوصيل التجارب الجمالية كما خالها البعض، أمثال لاسيل أبركرومبي بقوله: "الأدب هو الوسيلة لتوصيل التجارب"[٥٣].

53- لاسيل أبركرومبي "قواعد النقد الأدبي" تر. محمد عوض محمد – ص٣٥.

الجدير بالقول لا تعد الذات اللغوية لغة ذاتية ما إذا كان هنالك من حس جمالي ينتاب الذات المبدعة ويشاغلها، إذ أنه من المؤكد يمسي أي منتج لغوي هو منتج جمالي ذو قيمة، فالوعي الجمالي مكنون حتماً في الوعي اللغوي، ووظيفة اللغة هي التعبير الصريح عن اندفاعات هذا المكنون المستبطن بوصف اللغة وعياً لا أداة جامدةً.

أرى أن الوعي اللغوي هو من أرفع الأنماط التعبيرية عن حالات الذاتية الجمالية، كون التجربة الجمالية من مفرزات الوظائف التي تتولاها سلطة اللغة لفهم شؤون الحياة وإدارتها والإفصاح عن قيمتها الجمالية.

إن مفهوم الجمالي (Aesthetic) في فلسفة الكلام من أكثر المفاهيم اتساعاً وشمولية وتعقيداً عبر مراحل تاريخ اللغة والإبداع الجمالي.

طبيعي، اللغة المتناسقة المحكمة المصاغ التي تتلمس حقائق الواقع برؤية عقلانية بحتة تمنحنا البعد الجمالي في مستويات حياتنا الاجتماعية، ولهذا يصبح البحث في وظائف اللغة ومكوناتها ومفرزاتها بمعزل عن حقائق الواقع الاجتماعي بحثاً منقوصاً ولا طائل منه، ويبعدنا عن إمكانية تملكنا لحقائق الجمالي.

لا يفوتنا أن الموقف اللغوي يظل على الدوام بين ذات متوترة مندفعة تحت ضغط قوة جوانية متحفزة، وانخراط قسري في واقع يعج بالرؤى المتباينة، والوقائع المتداخلة، والتجارب القاسية، والتحولات المريبة، وأزعم أن لا وظيفة للغة ما لم يكن هناك وجود حقيقي لموضوعة الجمالي، من ذا فإنه في حقيقة الأمر، تقوم وظائف اللغة على معالجة المواضيع السامية بوصفها إبداع جمالي محض، وكما أسلفنا، فإن ما من إنتاج جمالي إلا ويؤثر في الذات ويفصح عن خواص جمالية متأصلة فيها، ينعكس هذا التأثير طرداً على الواقع

المعاش، فتتملكه وتتولى بناءه جمالياً، من ذا يعتبر ما ينتجه الوعي اللغوي، وعياً فنياً جمالياً، والإبداع نفسه مشروط بحالات وظروف ووقائع، فمن حيث تقويم الوظائف اللغوية، يتوقف على هيئة الذات الجمالية، وحالات الموضوع الجمالي المتطابقتين في الرؤية التي تُبدع العمل الفني.

ليس الوعي اللغوي مجرد مصاغ فني للخطاب، وإنما إنتاج لحظات جمالية تحدد رؤية الذات تجاه الواقع والمجتمع.

لا شك في أن الوعي اللغوي تربية جمالية لا تخرج عن إطار الواقع المادي والاجتماعي، وفضلاً على أن الإبداع تعبير عن الجمالي الذاتي، إلا أنه تعبير عن الجمالي الاجتماعي، وكون الذات لبنة من لبنات الكيان الاجتماعي.

لقد تطورت الوظائف اللغوية عبر الوعي الفني لمحتوى الواقع العياني، فأبرز الوعي اللغوي فناً جمالياً طبيعياً وفناً جمالياً اجتماعياً، ونتيجة لتطور الوعي اللغوي عبر التاريخ تمكّن من تملُّك الواقع جمالياً.

يتعين علينا أن ندرك بقناعة خالصة أن الوظيفة اللغوية هي الوظيفة الاجتماعية للوعي الفني الجمالي لأنها لغة التفاهم الجمالي البحت، ولدى بحثنا الفلسفي عن ظواهر الوجود ومظاهره الدائمة، ألفينا أن الفهم البدائي كان مجرد وعي اعتباطي قلق ومشوش، بيد أنه مع الزمن انتظم في سياق لغوي، واستند إلى وعي فني شمولي، وحاكى الوجود في أناة وحكمة واتزان -مررت قبلاً على ذكر حركة التطور التاريخي للوعي اللغوي في مستهل البحث، بيد أنه لما كان موضوع الفهم الفلسفي لحركة الحياة الإنسانية من التشعب وتعدد الرؤى، تعذّر علينا التوسع فيه- وعلى أية حال، فإن القلق إزاء مظاهر الوجود هو حالة متكوّنة في الذات الإناسية المبدعة، وهي من دواعي البحث، وحوافز الخلق التي أنسنت الذات، فآمنت لها من بعد خوف، وشرع الوعي الإناسي يتشكل تدريجياً من الذات

البدائية الفطرية إلى الذات الواعية موضوعياً، وارتقى من الوعي الفردي (الذاتي) إلى العقل الجمعي (الاجتماعي)، يقول أندره لالاند: "إن الفرد الراهن المشخّص وهو عقل منه غريزة، يخضع مشروعاً للقوة الجمعية، من حيث أن هذه القوة تمثل إرادة لاشخصية وتأملية"(٥٤).

إن التعبير الصوري والحركي البدائيين لاستيعاب ظواهر الوجود كان وعياً فطرياً وليس وعياً عقلانياً، فالفن نشأ بالفطرة، لكن صيرورة الوعي الفني كوّنت وعياً لغوياً معقداً، ارتقى إلى مستوى العقل المحض، الأمر الذي حفّز الوعي اللغوي إلى إنتاج القيم الجمالية العليا التي تملكت الوجود بدورها، وانبرت تتخلقه من جديد.

استطاع الفن العظيم أن يحتوي العالم عقلانياً من خلال الوعي اللغوي، وتعامل معه معرفياً عبر التخلقات الجمالية، وأصبح الوجود الإنساني وعياً فنياً جمالياً في سياق الاستيعاب اللغوي الذي يعقل الوجود ويعقلنه.

بدهي، يشمل الجمال كل ما استفاض عن الوعي اللغوي من فاتنات القيم والفنون والأفكار والمعتقدات، ومن ذا أمكن لنا اعتبار الجمال قيمة أخلاقية، وأن أية حداثة جمالية هي أرقى من سابقتها، وقد يتخلق الوعي الإنساني بما خلقه الوعي الإلهي، ويتمثل ساميات القيم في سلوكه وتعامله وطرائق تفكيره، وتنظيم الحياة على أساس فضيل عبر مراحل حياته، لكن وعيه يظل جزئياً ومرتهناً ضمن دائرة الوعي الكلي المتعالي، كون الوعي البشري يبحث عن حقائق الوجود التي تكوّن حجم واقعه، فيتعامل معه على أساس من التوازنية والانسجام أو التصالحية معاً في بعض الأحيان، وبالرغم من كل ذا وذاك، تظل الحداثة قاصرة إزاء الكلانية المطلقة في فهم العالم،

54- أندره لالاند "العقل والمعايير" من مقدمة المترجم د. عادل العوا – ص٣.

ومحدودة في كل زمن تمر به، ولا تخرج عن إطار الوحدة الكلانية لمكونات الوجود (Etre) سواء في أنماط التفكير الواقعي أم فوق الواقعي (Hyperreal) والحداثة ليست وليدة الحاضر، وإنما بدأت تتخايل ظلالها عند بزوغ أول بصيص وعي أضاء حجرة العقل البشري، لا كما حدد البعض من فلاسفة الفكر الحداثي ومؤرخوه، وزعموا في أن انتشار زمن الحداثة في القرن السادس عشر، وظهور المجتمع الصناعي الأوربي، وكأن تحطيم بنى العهود الكلاسيكية التقليدية القديمة، وإعلان سلطة العقل على إدارة شؤون الحياة وقضايا الإنسان بعامة هي منذ بداية النهضة الأوربية، ومعظم ذخائر الموروث الإنساني العريق تجاوزها الزمن وأصبحت في الخلف.

لا يمكن بأي شكل استبعاد فن اللغة وعلمها وما أنتجته من إبداعات عن سياق التاريخ وسيرورته سوءا في طرائق المناهج أو رؤى التأويل أو نظريات التفكيك أو علم بنى النص "الخطاب" من حيث أن اللغة قد أخذت مساحة واسعة من أرضية التاريخ، ولعلنا لا نكون مخطئين إن قلنا، أن اللغة قد تجلّت فصنعت دلالات التاريخ، ولعلها حقيقة أفرزتها حركة الحياة واقعاً واجب التحقيق في سائر أصناف المعاني، وأحدثت بالضرورة عقداً تواصلياً بين الدال اللغوي والمتلقي.



اللغة ودلالات الحداثة وما بعد الحداثة

هل جملة ما استفاض عن رحم الحداثة (Mondialistim) وأطلق عليه ما بعد الحداثة يخرج عن نطاق التوالدية، وينتبذه التطور التلقائي لخصائص الوعي في اكتشاف العالم (ذاتياً- موضوعياً)؟ بمعنى، هل ما بعد الحداثة إلغاء للحداثة؟ كثير مما أنتجته الحداثة آيلة إلى زوال، وحسبي قد قاد بعضه إلى دمار، فخرب فكراً، وعقّد أنفساً، وأفسد أخلاقيات، وترى حيناً الحداثة تعلن تمردها وقطيعتها مع الماضي، فكرست ظاهرة العزل والتغريب في سيرورة الوعي الجمالي والمعرفي لخصائص الحياة وقيمها، مما جعلها تُفرغ اللغة من محتواها كون طبيعتها منفتحة على الأزمان، ومؤسسة على نواظم تكونها الأول، فليس صحيح بمكان أن الحداثة قد ارتبطت بفكرة سلطان العقل، ولا أعتقد أن هنالك حقائق قد استمدت قيمتها وأخلاقيتها من كونها نتاج للعقل الإنساني الخالص، وبعض من الحقائق التي "قولبت" (Sterotypes) وجرى تمثيلها وممارستها في الحياة العامة على أساس أنها قيم حقيقية خالدة، أسسها العقل، وهي ثمرة من ثمراته النبيلة، ووصلت حيناً إلى درجة التقديس أو اتخذت صفة المحرَّم، وأن الخروج عنها "اختراق" (Transgression) للخطابات والنصوص التي أسبغ العقل عليها طابع القداسة.

لا يعرف الوعي اللغوي الذي يتولد عن الذات العاقلة المحدودية والتناهي، ما دام هنالك إفصاح عن حقائق غير مشروطة زمانياً ومكانياً وعلى كافة المستويات، والحداثة التي تحدثت عن نفسها في أنها نتاج عقل خالص، نقضتها فلسفة ما بعد الحداثة، وردت الحداثة بدورها مدافعة عن صحة رؤيتها، واتهمت ما بعد الحداثة بأنها رؤية لاعقلانية، تدعو إلى تحطيم الفكر "اللاغوسي" للحداثة، وكان من أبرز فلاسفة ما بعد الحداثة "نيتشه" في نظريته "إرادة القوة" و"دريدا" في نظريته "التفكيكية"...إلخ –نحن لسنا بمعرض الحديث عن هذه النظريات لكننا نؤكد في هذا العرض الموجز للأفكار التي تطرحها تلك النظريات المتساجلة- إن تكوين المعاني منذ البدء الأول حتى آخر لحظة حداثية تختزن بداخلها دفء الوعي، كونه طاقة عقلانية نتعامل على أساسها بمنتهى الشفافية في سلوكنا الإنساني، وتتطهر دواخلنا من عوالق خبيثة، أشبه بالماء الذي يختزن طاقة الشمس فننعم بدفئها ونتطهر بها من أدراننا، والمعاني مكوّنة من قيم بحضورية أو موجودية اللغة التي تحمل مورثات القيم وتمثل حداثتها في أي زمان، فهي ليست عُرمة من التنضيدات البنائية والحزم الدلالية، إنما هي مكوّنة من أمشاج نسقية متداخلة ومتوالدة من عُرم التصانيف التي تنضوي تحتها مختلف الأجناس الإبداعية، يقول "جيوفسكي" عن تاريخ التطور الأدبي وتواصليته عبر الزمن هو "بنية تزامنية، ونظام متطور، وربط جدلي لكلا المتغيرات والثوابت"[55].

إن التفرد والتميُّز في النصوص الإبداعية الشاملة مباهاة سطحية، وتفاخر أجوف للأنا المنفصلة (Solipisisme) عن ذوات الآخرين في عملية وعي وإبداع الحياة المثلي.

55- جيوفسكي "نظرية الأنواع البنيوية والسيميائية" تر. كاظم سعد الدين.

يحسن بنا فهم مسألة حساسة، كما يجدر التنبيه إليها في معرض طرحنا، وإن لم تكن لها ذات صلة في أبحاثنا اللغوية، إلا أنه من الضرورة بمكان بيان معايير تتعلق بمرتسمات تطور الحداثة، وأجد نمطين شفافين يتعلقان بموضوعة الإنتاج الإبداعي، أولهما: نمط الفن (Ars)، وثانيهما: نمط القيمة (Valeur) فالفن أحد وجوه أزمان الحداثة بوصفه يمثل طرائقاً متعددة في صياغة معايير الجمال، والقيمة إحدى وجوه أزمان الحداثة باعتبارها تمثل طرائقاً متعددة في صياغة المعارف، ومن ذا نميز بجلاء الفن بوصفه شكلاً، والقيمة باعتبارها محتوى، ومن الضرورة بمكان، بيان ازدواجية العلاقة الجدلية في مرتسمات (Schemas) تطور الحداثة بين الفن والقيمة وما ينضوي تحت أحكامها وأساليبها ونماذجها ودلالاتها وتقناتها ومعاييرها ومناهجها وتأويلاتها وتاريخانيتها وألوان المتغيرات وأنماط الثوابت وكل ما له من علاقة في النصوص البلاغية سواء المعرفية منها أو الجمالية.

استناداً إلى ما سبق عرضه، نخرج برؤية أخرى تخالف ما طرحه جورج لوكاتش / - ١٩٧٠/م حول الطبيعة وقوانين العمل الفني، قد يبدو لنا أول وهلة بأن لوكاتش الأكثر واقعية في قوله: "لا يستمد الفنان رؤيته في بحثه عن الجمال من الطبيعة.. وهذا ما يجعل من الفن صورة فوتوغرافية للطبيعة، وليس إبداعاً حقيقياً، علاوة، أن قوانين العمل الفني مختلفة عن قوانين الطبيعة"[٥٦].

إن أي إبداع يقرُّ بأن القيمة الجمالية جوهر لا ينوجد إلا في الأعماق الفكرية والنفسية والوجدانية وليس له موجودية في الطبيعة الخارجية، هي

56- رمضان بسطاويسي، محمد غانم "علم الجمال عند لوكاتش" – ص١٠٥- مصر.

قيم يصوغها ذهن خيالي منزلق، والانزلاق في نظرنا يتم عندما يتحوّل مصاغ الجميل إلى مصاغ الجليل، ويبدأ هذا الانتقال العرفاني (Gnostigues) في حالة الكشف المتجلي للقيم المتعالية، والسؤال الذي يطرح نفسه بالضرورة، هل ظاهرة الانزلاق سلبية في قضايا الإبداع أم متوافقة؟ إن الممعن في مظاهر قيم الجمال المتجلية، سواء منها الطبيعية أم الصناعية أم الخيالية أم الروحية، يلحظها مستمدة من الواقع ومتعشقة معه، والممعن في مظاهر الجليل، فإنه يلحظها تندُّ عن الواقع، وتحلق في فضاءات تأملية مثالية سامية، وتجدها حيناً مترفعة على الجمال ذاته، وبناء على ذلك نؤسس مقولتنا على أن الجمال توحّد العقل مع قوانين الطبيعة، فكلاهما يمثلان وحدة الرؤية في تكوين معايير الوعي الفني، أما قيم الجلال هو توحّد الروح مع عالم المافوق المتحرر من جاذبية قوانين الطبيعة، لكن التحرر ليس الانفلات والسبحان في فضاء اللامعقول كما يُخيل للبعض -طبيعي لسنا بمعرض الحديث عمّا هو وراء الطبيعة- لكننا نشير باهتمام إلى أنه مهما يكن منشأ النصوص، سواء منها المقدس أم الدنيوي، تظل مرتهنة بأعم القضايا الإنسانية الأكثر مساساً بالحقائق الواقعية. ومن هنا تنشأ القيمة العليا المتجلية من معايير الوعي الفني الخلاق التي تحدد القيمة الجمالية والأخلاقية والعقلانية في حياتنا الداخلية والخارجية بآن معاً.

إذا كان العلم هو التعبير العقلاني عن مستوى رُقي العقل، فإن اللغة أبرز أقنوم علمي يكشف مقدرة العقل لغوياً على وعي العالم الإنساني، وتبين أن الوعي اللغوي قد أسَّس رؤى حديثة بحثت في القضايا الأعم، وتعاملت مع الظواهر واللحظات الجديدة بفهم واع لا يخلو من معوقات وعثرات وإشكالات معقدة إزاء صياغة واقع عقلاني، فنسبغ عليه وعينا كي نجعل

منه عالماً مفكراً متفاعلاً نامياً ومتحاوراً في كافة الأقانيم المعرفية، وتفعيل آلية اشتغال اللغة التي تتضمن جُلى مفردات المفاهيم التي تختص بملكات معقلنة قادرة على إصدار أحكام أكثر تعبيراً عن خصوصية الذات الإناسية، وذلك لإمكان تحويل الوجود إلى فكر لا إلى شيء فحسب، أي جعله عقلاً ديناميكياً توالدياً، لا عقلاً ساكناً عقيماً، والارتفاع به من مستوى المادة إلى مستوى الأنسنة، واستثمار الوعي الكلاني لصالح الوعي البشري في بناء عالم إناسي بمعناه الأخلاقي والجمالي والنفعي، ومن هنا ارتبطت قيمة اللغة بالواقع وباتت وظيفتها تعمل على صياغة الواقع في جملة منظومات معقلنة تخدم نشاطاته على المستويين الفكري والعملي، وشأن اللغة شأن مناهج الرياضيات، تخضع بالضرورة إلى عملية انتقالات في حركة تحولات الخصائص المعرفية، وتتفاعل في حركة ثنائية متبادلة، هي أن التعبير اللغوي أمسى التعبير مجرداً في أعم مفاهيمه، بيد أننا هنا لا نقصد فصل اللغة التشخيصية عن اللغة التجريدية في تجربة العقل النظري (منطقياً أو موضوعياً) البتة، وإنما مآلنا هو رصد حركة تطورها القائم على مبدأ التاسلية الذاتية (Subgectivetion) فحين تُشخص اللغة الواقعة وتصوغها مفاهيم، ما تلبث أن تغدو المفاهيم وقتئذ مبادئ أو أحكام أو قوانين أو قيم أو طرائق أو معتقدات أو نظريات أو عادات أو أعراف أو قواعد أخلاقية..إلخ. وأثناء التطبيق العملي يتحوّل الوعي التجريدي إلى الوعي التشخيصي، وهنا تتألق أنساق المفاهيم الفكرية التي يصوغها الوعي اللغوي فتجررها من محرومية التشخيص بفعل حركة الوجود، انطلاقاً من مبدأ أرسطو القائل "الوجود بالقوة حالة حرمان لما هو موجود بالفعل".

يجدر بنا عرض موضوعة أخالها قضية مفصلية مثل أية قضية مفصلية في مهام ووظائف الوعي اللغوي في حياتنا، فنرى أن اللغة تتعامل في وظائفها مع

المرتسمات الطبيعية من خلال التخلقات الإبداعية، فنلمس الوعي اللغوي ينفتح على كل ما هو كائن، ويتولى صياغة ما ينبغي أن تكون عليه المرتسمات الطبوغرافية للمساحات المعرفية بعامة، وغني عن البيان، أثبتت وقائع قدرة اللغة على التكيف مع الظروف والأحوال المتطورة، وأفصحت بجلاء لا نظير له، أنها تمتلك طاقة خلاقة وتوالدية في عملية التزاوج التعبيري في مظهريه (التشخيص- التجريدي)، ولعبت دوراً فعالاً في إنشاء وتطوير المعارف والعلوم والفنون الإنسانية، ولم تُعد نظرية وصف اللغة بأنها (أداة تعبيرية)، لأن في ذلك إغماط وتغريب وعزل الوعي عن اللغة، وإفراغها من أمشاجها العقلية، وتجريدها من خصوصية الإبداع والخلق والارتقاء بالمعارف والعلوم، وإلغاء دورها في بناء الحضارة ومدنيتها، فباتت الآن دون أدنى مرية لغة العقل وعقل اللغة، ولم تعد تطرح نفسها في البناء المعماري أداة تقنية كونية أو حادثة تاريخية عابرة، أو مجرد مفاهيم متغيرة، أو بنى تراثية جامدة، وإنما معايير قيمية حيوية تفصح عن الحقائق الجوهرية التي تتوخاها العلوم الإنسانية مجتمعة.

إن تجربة اللغة منذ بداية محاكاة الطبيعة تصويرياً، أو تشخيصياً كانت تمتلك خواصاً قابلة للانفتاح والتطور، ويخطئ من يطلق عليها أنها قالبية منغلقة على ذاتها، ودونية تجاه غزارة المعارف المستعصية على الفهم والتعبير والكشف، ويأتي انفتاحها من الوعي العقلاني المتأصل في دلالاتها المعانية الراقية، وما فتئت تبني أنساقاً (Systemes) وشبكة روابط ثقافية، وحالات نفسية، وإرهاصات فكرية مُستلهمة من التوضعات المستبطنة (Introspection) في أعماق الذات، بغية استكمال البناء المعماري للحياة الإنسانية.

إن الحاجة إلى التعبير حالة متأصلة لدنّ أي كائن على ظاهرة البسيطة، ولكل حسب تكوينه العضوي أو الغريزي أو النفسي أو الذهني أو الخيالي...الخ. فإن جاز لنا القول، أن اللغة الغريزية "الفطرية" التي تتطلبها ضرورات التعامل عند معظم الكوائن الحيّة، سابقة على اللغة الوضعية "المكتسبة" المؤلفة من جملة الرموز والدلالات والإشارات التي تلج فضاءات غير متناهية، وأخمن، إن جاز لي التشبيه أن اللغة ثقب مظلم في الفضاء العقلاني تتناهى إليه كل شوارد المعارف، ومن المعلوم لدينا أن أي مطلق غير متناه هو أبدي، واللغة عندي حالة مطلقة غير متناهية، نظراً لكونها ذات طبيعة توالدية، بدأت مع أول إشارة تعبيرية صدرت عن الكائن، لتنتهي مع آخر إشارة لهذه الكوائن، وكونها لغة الخلق والمخلوقات، فهي مرتهنة بوجودهما، يقول "لاكان": "إن عالم الكلمات هو الذي يخلق عالم الأشياء، وإن الإنسان يتكلم حقاص، ولكن الرمز هو الذي جعله إنساناً"[٥٧].

تتحول اللغة لما تتحوّل اللحظات الزمنية المبدعة، وتظل راكدة عندما تتوقف هذه اللحظات من جراء أي سبب من الأسباب، والاستمرارية في التحوّل تعتمد على ثنائية (Binary) التفاعل بين تخلقات المعاني بغرض بناء الذات المبدعة، وحضورها في أبنية الخطابات النصيّة المتشاكلة التي تُنصِّب نفسها سلطة واعية بوصفها قائدة معرفية للمجتمع، وتخضع سائر الأشكال والأنماط السلطوية لمشيئتها العليا ولحيازتها مقاليد وجدانية وأخلاقية توجه آليات الواقع المعقلن. قد تختلف أساليب علاقات التفاهم بين الأنا والآخر، وقد تتفق في الوجه المقابل، فتختلف نظراً لكون اللغة تتصف في خاصيتي الشكل والمحتوى، فالشكل فني بحت يتعلق بالحرف واللفظة لدن الشعوب التي تتكلم لغاتها المختلفة، وتتفق من جانب، بوصفها محتوى معاني دالة إلى

57- لاكان "كتابات" ص١٥٥ - باريز.

قيمة معرفية وجمالية، فإذا ما تقصينا حقائق كان قد طرحها الوعي اللغوي في هذا المجال الخلاق، لألفينا أن الخلافات لا تتعدى الشكل من حيث الصيغ والأساليب والتراكيب، وقلما نجد خلافات حادة في الرؤى القيمية الإطلاقية، أما عند تحرينا جوهر خصائص الوعي، فإننا نلمس تمييزاً واضحاً بين الأنا والآخر في غالبية المعطيات الأكثر خصوصية وتقليدية وذاتية، بيد أنه لا يفرق في المعطيات الأكثر شمولية وكلية، ويندمج في القضايا المتحوّلة والارتقائية، وتتشاكل وحدات البنى الخاصة مع بعضها لتشكل وحدة البنية الكلية، إلا أننا نولي الوعي مهمة الإفصاح عن نظام التعامل بين المعرفة العقلانية والوجود، ومعوّل عليه مسؤولية إدراك آلية الكشف عن الجوهر القيمي بواسطة الاستيحاء المعرفي في مجريات الفعل الإبداعي، وحتى في لغة البحوث العلمي والاختراعات التقنية والتكنولوجية تظل حركة اللغة متفاعلة ومتطابقة مع حركة العلم وأنظمته، ومتواكبة مع ارتقاء المستويات المعرفية، ونحن لا نلغي حاجة التطور اللغوي مع التطور العلمي والحضاري، لكننا لا نتفق مع مقولة أن الحياة في تغيّر متواصل كما أومأنا إلى ذلك في رؤانا حول مسألة التغيُّر أم التطور في لحظات الخلق؟ وحالة اللغة في هذه المسألة؟ كما لسنا مع مقولة، أن كثيراً من الألفاظ تنقرض مع كل حقبة زمنية، وتُستبدل ألفاظ بألفاظ، ومعان بمعان. يقول شفيق جبري: "إن الألفاظ تابعة للحياة، تتحوّل بتحولها، فكما أن الحياة لا تثبت على طور من الأطوار، فكذلك الألفاظ لا تثبت على وجه من الوجوه"[٥٨].

58- شفيق جبري "الألفاظ والحياة" مجلة مجمع اللغة العربية – مجلد /٤٨/ ص٧٢٧- دمشق.

لكننا نرى في ثبات النظام القاعدي اللغوي للألفاظ شكلاً ومعنى في وحدة الكلمة، لكنه يطرأ على الكلمة صياغات وتراكيب تجاري التحولات، وتعاصر الأطوار، ومهما ارتقت تكنولوجيا اللغة، تظل ثابتة اللفظة والمعنى، لكنها تتحوّل في اشتقاقاتها الدالة من ذاتها ولا تخرج عن خاصيتها الجوهرية، وكما هو معلوم، لكل كلمة أصل محدد المعنى، تشتق عنه عدة استدلالات يمكن استخدامها وفقاً لمصاغات الكلم في وحدات السياق، فإن دلّ ذلك إلى شيء، إنما يدل إلى ما تتصف به خصائص اللغة من قدرة على التوليد الاشتقاقي والتناسل اللفظاني والتعددية الدلالية في كافة التعابير، والإبداع المتخلّق خير دليل ثابت على ما للغة من قابلية على التكيف والتحوّل والتناسل والتنامي، وحسبي أن اللغات العظيمة الخالدة تؤثر في الحياة الثقافية للشعوب أكثر مما تتأثر في لغاتها، واللغة طاقة وعي تختزن رموزاً معانية وهاجة، يبثها التراث عبر أثير المعاصرة.

يخطئ من يعتبر اللغة عاجزة أو منهزمة أمام تحديات التطور التكنولوجي والتقني، إنها تمتلك بحق قدرة على الانفتاح والاندغام والتمثل والاستيعاب لمعظم المناهج العلمية والمعرفية التي تحدثها في حياتنا الروحية والاجتماعية والثقافية والنفسية، والوعي اللغوي الذي يتخلق المعرفة العلمية ويتحوّل معها هو بالحقيقة حاصل فعل تلقائي بحكم الضرورة التي تفرضها منعكسات تطور طرائق وسبل وأدوات التعبير الأكثر حداثة.

تحطيم تجربة الأنا في لغة الآخر

إن وحدة الفكر والوعي اللغوي هو فن الإفصاح عن المحتوى القيمي، لكننا إن نعمل خارج سياق هذه الوحدة فإنما هي مسألة توافق مفاهيم "الأنا" وعلاقتها بالغير، وبنفس الوقت تخالف (Opposition) مفاهيم بذات المسألة؛ فالحداثة المنفتحة تبرز بجلاء دورالعقل الشمولي في وحدة الأنا مع الغير، وتنفي وحدة الأنا المنعزلة، ولعلها تؤكد على أنه من المستحيل على الذات أن تنغلق على نفسها، وتتفرد ككينونة دون وجود روابط وعلائق مع الغير، يقول "فريدريك هيجل": "الوعي بالذات هو أولاً، وجود لذاته بسيط، مساوٍ لنفسه، ينفي من الذات كل ما هو آخر، فماهيته وموضوعه المطلق هما بالنسبة إليه الأنا"[٥٩]

نحن نخالف هذا الرأي، من قناعتنا اليقينية، بأن الوعي يقر بوجود تعشق متجادل بين وعي الذات إزاء وعي الآخر، ومن حيث أنهما يمثلان وحدة وعي تفصح الذات عن نفسها عن طريق آخر، فلا تعارض ولا نفي ولا صراع (Conflit) يتوالدان من داخل ذاتهما، خاصة فيما إذا كانت الذات تمتلك

59- عن مجلة "كتابات معاصرة" عدد /٣٧/ ص٩٦.

مفاهيم قيمية تتعامل بها لنفسها، وتعممها على غيرها، وتتطابق وتنسجم مع أعم المفاهيم التي يمتلكها الآخر، من حيث أن الآخر كينونة شمولية ذات لُميّة تحتوي كافة "الأنات" التي تنضوي تحت وحدة منظومة الوعي الكلاني، يقول بروست في كتابه "ضد سانت بوف": "إذا ما أردنا أن نسعى إلى فهم هذا الأنا –الآخر– فلن نستطيع الوصول إليه إلا في أعماق أنفسنا، حين نحاول إعادة خلق ذواتنا"[٦٠]. وهنا من غير الممكن بالقطع، عزل اللغة عن الفكر أو المعرفة أو القيمة، أو الجمال التي يبدعها العقل الإناسي.

تجربة الأنا لا تأتي من فراغ أو خيال أو رؤى، وإنما هي مستقاة من شروط فكرية واجتماعية ونفسية وأخلاقية وأخرى ثقافية، تشكل القواعد الأساسية، في بناء صرح "الأنا"، لذلك، فإن أي تعبير عن محتوى "الأنا" هو ناتج عن مفهوم دلالي له معانيه وأحاسيسه ورؤاه ولغته المستمدة من الواقع الإنساني، والحداثة في "الأنا" من جانب أنها تمثل وحدة تامة وكاملة، فهذا تبعيض وتغريب لكامل "الأنوات"، وكأن العالم وحدات كلية منعزلة ومنغلقة تكوّن البناء الكوني، ولا إخال أن البناء الإنساني مثل البناء المعماري المكوّن من لبنات منضدة، بل إنما هو بناء روحي مكوّن من لبنات قيمية مسبقة الخلق في الذات الوجودية والوعي الفني اللغوي هو الذي يحسر الستارة الشفافة عن إهابها الجميل، ويُفصح عن "الميكانيزم" الإلهي لهذه العلاقة القائمة بين "الأنا" الإنسانية والوجود المتجليان في ذاتهما الواحدة، واللذان يحاكيان الوحدة الإلهية من خلال تجربة الحياة الجمالية. أخلص في القول، أنني عندما أعبر عمّا يجيش داخل أناي باللغة الدالة عن جُلى المعاني

60- دانييل برجيز "مدخل إلى مناهج النقد الأدبي" تأليف مجموعة من الكتاب – ص١٢٢- تر. رضوان ظاظا – سلسلة عالم المعرفة- العدد /٢٢١/ الكويت.

التي تتخلق في أعماقي، لا يخرج عن كونه حالة تجسيد ناجمة عن تأثير الغير في حالات وعي الذات لنفسها، وقدرة متأصلة فيها للتعبير عن ذاتها كرؤية حداثية تحمل موروث الذات المتلاقحة مع الآخر، ومن هنا تأتي فلسفة اللغة في تجادل الذاتين، من حيث تطابقهما من طرف، وتحطيم تجربة الأنا في لغة الآخر من طرف ثان.

يقول "أندريه مارلو": إن دفع البحث المتعلق بالذات إلى أقصى حد، يخلق نزوعاً نحو العبث"(٦١).

أجد مارلو يرى العالم في نظرته من كوة جد ضيقة، فهو يقيس الوقائع من حالات أشد خصوصية، في الوقت الذي يعمم رؤيته، وقد وقع في ظنه، أن سبر الذات عملية انسدار أعمى نحو العبثية، بيد أننا نرى من الوجهة المقابلة التي يرى فيها مارلو، أن اللغة التي فجرت تجربة الذات عبر الوقائع المرتكزة على أسس أخلاقية عليا، فرزت فكراً وأدباً ومعتقداً ونقداً وفناً شكلت منعطفات هائلة في الحضارة ومدنيتها، وغدا الوعي اللغوي قيماً جمالية ومنظومات قاعدية، ومستويات أخلاقية، ومعتقدات روحية، وتشخصات نفسية، ومبادئ فكرية...إلخ. لكن البعض منها قد ساق البشرية نحو استلابات وتعميات وتغريب ودمار، لكن هذا العبث الجالخ لم يكن نتيجة منطقية لعمليات البحث عن المكنون الطبقي المتراكم في المقطع الجيولوجي للذات الإناسية، وإنما هي نتيجة رؤى أخطأت قراءة وتفسير الحياة الكلية للذات، واعتمدت في بحثها على عوامل أُحادية الجانب، وانجرفت وراء مصالح تخدم أفراداً أو فئات أو مجتمعات.

61- عن مجلة الآداب الأجنبية- العدد /١٠٦-١٠٧/ ٢٠٠١م- تر. د. عبد الجليل غزالة- المغـرب- ص١٢٦ – اتحاد الكتاب العرب- دمشق.

إن طبيعة الذات السوية تخلق شيئاً ذو قيمة، والقيمة بذاتها مكوّن تام وأصيل، وأي نقص أو خطأ في طبيعة القيمة المعبرة عن نوازع أو محتوى الذات، هو خلل يأتي من خارج الذات حكماً، فيغدو هنا القبح محمولاً على موضوع القيمة.

وصفوة الكلام، أن العبث محمول على كينونة الذات، وأن فهم العالم ما يزال يغازل القضايا القليلة من أعماقنا الثكلى، ونخال أننا نصيغ معايير وأحكام جديدة وحداثية تقلب صورة الحياة، غير أن معظمها للأسف، يفسر وقائع الحياة في ظاهرها، ولا يمس غير سطوحها، وأن في ذلك لبؤس عظيم.

إن أي "أنا" لا تنتمي إلى الذات القيمية الكلية هي "أنا" غير سوية، وتميل نحو الانغلاق والتناقض والانفصام، واللغة أحد أهم الطرائق الناجعة في تحليل "أنا الذات" تحت تجربة ما يسمى بـ "الاستقراء" الذي يسبر جوانية الشخصية ويشتغل على تحريرها من اختلالاتها وبؤسها النفسي ويحاول دمجها بـ "أنا الآخر"، ولا أعني هنا بـ "الاستقراءات السريرية" ولا كما ذهبت إليه مدارس التحليل النفسي في شتى رؤاها وتأويلاتها وتفسيراتها، لكن هنالك كثيراً من الأنماط والأجناس الأدبية والفنية والثقافية والدينية والتربوية ساهمت في تحرير الذات من شرنقتها الكتيمة، وحالما نستقرئ الخطابات الفكرية والأدبية والأسلوبية، واللوحات الفنية، إضافة إلى النصوص الدينية تطالعنا قضايا "ذاتية" (Ineter-subgectifs) منسربة في نسيج الأنساق النصيّة أو التشكيلية، واللغة فيها مغرقة في تلمُس مستبطنات "الأنا" ومحاولة اختراق جدرها المصفحة بأدق المشاعر والارتعاشات والخواطر والمواقف، فتحرّضها على البوح للإفصاح عن مكنونات الذات للذات، والانفتاح على ذوات الآخرين، وتتجاوز اللغة حيناً وظائف التحليل والتأويل

والاستجلاء وترتقي إلى تحرر "الأنا" من ربقة الأغلال النفسية والذهنية التي ترسف تحتها وتستعبدها، وبالتالي تسوقها دون إرادة منها صوب هاوية "الجنوح".

إن قراءة نوازع الذات من أبرز الاهتمامات التي تعنى بها وظائف التحليل النفسي، وتم التركيز على مضامين الخطابات والرسوم التي تعج بالرموز والإشارات والدلالات المنعكسة عن حالات ذهنية ونفسية لمبدعها، يقول كورت إيسلر، أحد نقاد الأدب العالمي: "كل دراسة نقدية لعمل أدبي لا بد لها بشكل مباشر أو غير مباشر أن تأخذ العوامل النفسية بعين الاعتبار"(٦٢).

من هذا التحليل اللغوي الذي يستبطن (Estinteriorise) انفعالات ورؤى الذات المحتجبة خلف سُتر الألفاظ، يبدو لنا واضحاً، أن الدراسة لا تقف عند حدود التحليل الفني "الابتسمولوجي" للنص بقدر ما تستغور مظان المعاني الموازية له، فتحللها تطابقاً وتناغماً مع التحليل النفسي "السيكولوجي" لمبدع النص، وينبغي الانتباه إلى أن النقد لا يعني بتاتاً دراسة الذات المبدعة المنغلقة على نصها فحسب، بل دراسة مجمل الأبعاد المؤثرة في بنية الخطاب زمانياً ومكانياً واجتماعياً وثقافياً ولغوياً، وتأثير الخطاب في عملية التحولات الحضارية، باختصار فإن تأثير أبعاد الآخر في بُعد الذات أحد الأبعاد الأكثر دراسة وتحليلاً، فإذا كانت اللغة بعداً تتداوله كل الأبعاد، فيعني أنها مكوّن من الآخر، فبُعدها يؤثر ويتأثر في الوقت نفسه ضمن إطار وحدة البُعد التي تتطابق مع وحدة التأثير، فهذا التوازن المتسق يفرز البُعد الجمالي في مظان الإنتاج الإبداعي.

لا بد من أن أعرّج في القول لأفصح عن حقيقة مفادها، أن النقد (Vcllue) رؤية محمولة على الرؤية، وقد ترمي إلى بُعد أو أكثر من بُعد،

62- عن مقالة "الدراسة التحليلية المفصلة لأعمال غوته" مجلة كتابات معاصرة عدد /٣٥/ ص١٠٤.

لكن النقد يرتدي في الوعي اللغوي أهمية ذات إشكالية معقدة، إذ أن معظم الأعمال الإبداعية تحتاج إلى تحليلات وتفسيرات توضح مآل هذه التخلقات تتقدح في الذهن بارقة الفهم، وتحرّض في راعشات الحس نشوة الذائقة، بيد أنه ليس من الضرورة بمكان أن يخضع الإبداعَ لمشروطية النقد، ولا يلتزم النقد بنظرية ثابتة البتة، فكل رؤية نقدية تحتمل التكذيب والتصديق بآن واحد، وأزعم بأن ليس للنقد قدرة على التنبأ في مجريات الوقائع كما غالى بها البعض، ولا يصوّب حكمه على الأحداث بدقة موثوقة، ولا ينفذ إلى وصف الإيحاءات والهواجس المرمزة التي تستفيض عن مستبطنات الذات، ومنذا أستطيع القول بأن النقد يظل أسلوباً فنياً يحتمل أكثر من رؤية في فرضياته، لكنه من غير الممكن أن نطلق عليه علماً.

ونشير هنا مؤكدين على أنه ينبغي أن يرتقي وعي الناقد إلى مستوى وعي المبدع، ويستوي حسه بدرجة حس المبدع، لإمكان استغوار عمق التجربة الفنية، والحكم على العمل الفني بمعايير عقلانية صحيحة، ويصيب في تقييمه كَبد الحقيقة التي يرمي إليها الفنان المبدع، وهنا نحكم على فن الأسلوب عند الناقد بأنه موفق في إعادة بناء العمل الفني، يقول الناقد الأمريكي ر.أجيمس سكوت: "يجب أن يكون الناقد قادراً على إعادة بناء ما كان الفنان قادراً على بنائه... لذلك ينبغي على الناقد أن يعرف الحياة معرفة لا تقل عن معرفة الفنان"[٦٣].

إن من وظائف اللغة في بنى الخطابات أو الصور أو الإشارات هي إفصاح عن مداليل فسرها كثير من المفكرين والمحللين النفسانيين والنقاد على أنها بنية مزدوجة من الوعي واللاوعي، ظاهر وباطن، متحرر ومكبوت، أنا

63- ر. أ. جيمس سكوت "صياغة الأدب" ص٣١٣ – تر. هاشم الهنداوي.

وآخر، منفتح ومنغلق، متحرك وثابت، دال ومدلول..الخ. لكننا نرى أن التعبير اللغوي لا يمثل إلا الوعي المتوافق، وحين نتحرى عن مكبوتات قمعتها سلطة الأنا الأعلى الذي يمثل قوى الآخر، نجدها وعياً حقيقياً يتنافى مع تقاليد سلطة الأنا وينضوي تحت ما ندعوه بـ "الوعي اللامتوافق" قد يطلق عليه بـ الخرق أو الشذوذ أو الخروج عن المألوف أو القواعد العرفية..الخ. لكننا لدى استجلاء الدلالات المعانية لأي إبداع، نجد وعياً خجولاً متلفعاً بملاءة الحياء التقليدي، يتخفى خلفها وجه الحقيقة المستبطنة في الذات، فتتكشف من خلال الرمز المناور الذي يستحي من التعري أمام سلطة الآخر، قد يتجرأ حيناً، فينفلت من إسار سلطة الأنا فيدخل ضمن حلقة نور "دائرة الكشف" فتضيء الجوانب المعتمة في المستبطن، وهنا من غير المنطقي القول في أن كلَّ مستبطن مكبوت (Refoule)، ويندرج تحت مفاهيم اللاوعي، وينبغي أن نعلم بأنه لا توجد طبقتان أو مستويان متناظران أو مختلفان في أي فعالية ذهنية إذ أن المنجزات العقلانية تنفتح على بُعد واحد (Geneticrs) نامٍ، وتخضع إلى عملية تخصيب متواصلة عند كل لحظة خلق متوافقة ومتناسجة مع مجريات الحياة الإبداعية، وباطلة سائر الرؤى والأفكار والنظريات التي أقرت اعتباطياً (Arbitraire) مفاهيم (المتضادات- المتعارضات- المتناقضات- الاختلافات- المتنافيات- المفارقات..الخ) التي تساهم في تجسيد اللحظة الحاضرة كما تدعي، وتكشف عن حقائق مستقبلية لها مرتسماتها القيمية والجمالية، وتحدد مناهجها الفكرية، وتطرح قضاياها الثقافية من جانب، وتحطم أو تلغي أي معنى للماضي الفائت من جانب آخر، وتجد هذه الرؤى فيها حرية الوعي من السيدات التي تحدُّ من حركته، وتحجم انطلاقته.

لكل لغة هيئة (Aspect) دالة إلى معان تعبر عن شيء موجود في الذات أو في المحيط المنعكس على الذات المتفاعلة معه، وخلافاً لذلك، تبات اللغة مجرد مفاهيم خاوية تسبح في فضاء عدمي، فلا جرم في أن اللغة تملأ النواقص المفقودة في لوحة العالم بوصفه وجود كلي متكامل في بنيته المنطقية، وذو واحدية مطلقة (Monisme) وللغة تأثير روحاني يعمل على توهج الحالات النفسية والجسدية والذهنية، وقد لجأ إليها الكهنة والسحرة والمشعوذون على مدار العصور، لما لها من مؤثرات استشفاء ترتقي أحياناً إلى درجة تفوق السحر، وما نشاهده من أشكال التعابير الطقسية غير المألوفة، غايته إخراج الذات المرتدة إلى داخلها من دائرة الانفصام (Schizophrenie) والجنوح، وإدخالها دائرة السويّة، كون هذه التعابير إشارات صوتية تخترق قشرة الشعور، وتحفر في طبقات الذات المعتمة كي تستغور المجاهيل، وتستقرئ كامل تنضدات المكنون الثقافي والمعرفي والنفسي والروحي والنزوعي الكتيم، إنها لغة الآخر الأزلية التي تحاكي لغة الذات فتستبطنها أو تستقرئ معانيها ورموزها، وتحاورها كي تتواصل وإياها، وتتطابق معها، ولما تتحرر مما كانت ترسف تحت هيمنته ترفض وقتذاك الانحباس داخل مخبوء ذاتها، فتستفيض مُهل الباطن سيولاً من الذكريات الأليمة والمخاوف والأحداث الفاجعية والعُقد المتغلقة، والعواطف المتكيفة، والرؤى الحلمية المتحصنة، فتتطهر الذات من أرجاسها، وتتطبع مع محيطها، وتتوازن مع أُناسها، ، وبفضل فعل اللغة يتم صياغة وحدة "الأنا" فتتحصن بلغة الحقائق، ويولي الباطل المسكون في أخاديدها مدبراً، فتستأنس بمن حولها.

ثنائية الوعي والنص في التخلق الإبداعي

أود أن أستعرض قضية من أعقد قضايا النقد اللغوي تخص ثنائية الوعي والنص التي أفرزت أزمات مقلقة في فلسفة الوعي اللغوي الحديث، وأخص هنا الوعي المنفتح على النصيّة المتحركة، والوعي المنغلق على النصيّة الثابتة.

بداية يحسن بنا طرح ثمة أسئلة موضوعية قبل الدخول في محور القضية الأساس، لبيان أسبقية الوعي على النص أو العكس في العملية الإبداعية، وتوضيح أي منهما يخلق الآخر أو يتخلق به؟ وما هو دور اللغة في هذه الثنائية؟ ومدى تأثيرها في حياتنا الثقافية والأخلاقية والمعرفية والنفعية والجمالية؟ طبيعي، لا نجد حرجاً أو ضعف حجة لدى الأجوبة على جملة الأسئلة الهامة التي نجمت عنها العديد من التفسيرات، وتوالدت عنها تأويلات شتى، ولا أريد هنا جعل موضوعة الأسبقية في ثنائية الخطاب الإبداعي قضية معقدة، ونضيع في متاهات دوغمائية التفسيرات، وحينها تنطبق علينا مقولة "مونتين": "إن قضية تفسير التفسيرات أصبحت تشغلنا أكثر من تفسير الأشياء ذاتها"[٦٤].

64- عن "مدخل إلى مناهج النقد الأدبي" تأليف مجموعة من الكتاب – تر. د. رضوان ظاظا سلسلة عالم المعرفة – العدد /٢٢١/ ص١١- الكويت.

لا يخامرنا شك في أن اللغة تتولد من رحم اللغة نفسها وليس من خارجها، وباعتقادنا أن اللغة وعي شكلاني يكوّن النصيّة وفق قوانين أو أنظمة أو قواعد فنية، وباعتبارها أداة تعبير تظل محلقة في فضاء لغوي محدود في مجالاته ومداراته، أما الوعي القيمي في النصيّة نفسه فلا يعرف المحدودية، ويسبح في فضاء قيمي مفتوح على الكونية، ويمر في حالات من التوهج المنفتح على حقائق من الجمال القيمي والمعرفي، تأتي أطيافه من خارج المشروطية اللغوية، وبعبارة أدق، الوعي المعاني كجوهر قيمي يحتوي الوعي اللفظاني كشكل فني، ونفهم من هذه المقولة أن جمال الجوهر هو الذي يمنح جمَال الشكل بوصف الجوهر قيمة عليا تامة، ويجوز القول في أن الوعي أسبق على النص، كما هو الشأن، المعنى أسبق على اللفظ، وتأتي شرعية الثبات القاعدي في نصيّة الخطاب الإبداعي من خاصيته كشكل فني في ظواهر الوعي اللغوي، أما شرعية المتحرك المعاني في نصيّة الخطاب من خاصيته كجوهر قيمي في مظاهر الوعي اللغوي، ويتوضح بجلاء أن في اللغة قواعد تحكم الشكل الذي يهتم بفنيات مصاغات الخطاب، لكن ما يحكم المضمون فيه، هي القيم المعانية العليا المتحررة من المشروطية أو المحكومية الجامدة، ومن هنا جاء مفهوم التخلّق (Inventio) الإبداعي، فكل إبداع يحتوي على قيمة قابلة للتخلّق، أما الوجه الآخر من الوعي المنغلق على النصيّة الثابتة، فله مجاوره المتشابكة المعقدة، وأبحاثه معمقة يطول شرحها، ويلوح لنا أن أهم اهتماماته الحساسة هي مواضيع النصوص المقدسة وما يتبعها من أنساق تتعلق بالنواميس العرفية، والتقاليد الأخلاقية، والمعتقدات الروحية، والمحرّم، والشرعة، والرُقى والطقوس –طبعاً هذا ليس موضوع بحثنا على أية حال.

يقسم ياكبسون اللغة إلى لغة شكل، ولغة جوهر، ما وراء اللغة، يقول: "لا تقوم كشيء ذي قيمة، إلا بأن تتجاوز ظاهر اللغة، فتسبر بواطنها، وتستكشف تركيباتها الخفية"(٦٥). ولا أتصور كما يبدو لي أن هنالك تعارضاً (Antonymie) بين الثنائية، ولا أسبقية أحد على الآخر في مجمل عمليات التخلّق الإبداعي، لكن يجدر التصويب، لإمكان دحر كثير من النظريات التي تاهت في مسارب التفسير المتشعبة وقبل أن أتطرق بالنقد إلى آراء عدد من كبار النقد الأدبي والبلاغي واللغوي، سأستهل رؤيتي في مداخلة قصيرة أبين فيها وجه التقارب والخلاف مع هؤلاء البلاغيين الشكلانيين، فأريد هنا من البلاغيين أن يفهموا أن الوعي اللغوي في الإبداع، ليس قضية إنتاج أو تفسير أو محاكاة للواقع، وإنما توليد للحظات الجمال في الواقع العياني، أما شكل العلاقة التعاملية مع الخطاب في الواقع أو لدى المتلقي فترجع إلى ما يمتلكه النص من قدرات على التأثير في الوعي الوجداني والخيال والمشاعر الإنسانية، والتوليد الجمالي في الوعي اللغوي يعتمد على وحدة المعنى المتجددة بصرف النظر عن الوحدة الفنية التي تخضع للقاعدية اللغوية، بوصفها شكل ثابت، وبالرغم من الثبات إلا أنها تحتوي على وحدات القيم المعانية التي تنمو في الحاضنة اللغوية، أشبه بالجنين الذي ينمو في محتوى الرحم، من ذا يمكن للواقع أن ينمو عبر تجدد المعنى الجمالي في لحظات القيم المتخلفة.

لا يوجد في الوعي اللغوي أي شيء خارج فضاء الذهنية، سواء كان وصفاً أم إبداعاً أم حدثاً أم تأويلاً أم تخييلاً، فالوجود موجود حقيقة، له صورته وكينونته المستقلة، لكن الوعي اللغوي هو الذي يعكس محتوى

65- عبد الله الغذامي "الخطيئة والتفكير" ص٢٣.

الوجود بكل الطرائق الشكلية والمعانية على حد سواء، ويبدأ التلقي في الخطاب الإبداعي عن طريق تبادل وعيوي يرتقي حيناً إلى مستوى التجسيد، لكنه يظل ضمن مجال الذهنية، فكل تجسيد لشيء موصوف يمثل بطبيعة الحال صورته الخارجية من جهة، والهدف المرجو منه، من ناحية معانية أو قيمية أو جمالية من جهة ثانية، ولست مع نظرة أرسطو الذي يعتبر المحاكاة ليست بما هو كائن، وإنما بما يتوجب أن يكون، ولا مع نظرة ابن سينا والفارابي التي ترى أن المحاكاة (Miamesis) ليست البحث عن واقع الشيء بل شبيهه، ونفهم من هذه المقولات أنها تعنى بالشكل (تشبيه شكلاني، مماثلة، وصف..) ونرى أن المماثلة (Similarite) والتشبيهية للوقائع على مختلف صور الخطابات الإبداعية هي مجانبة صريحة للحقيقة الموضوعية الجارية في الواقع والقائمة على التبادلية في عملية الوعي ورد الوعي المتمثل في تصوير الواقع المقترن بحقيقة الشيء، وجلّي محاوراتنا أو محاكاتنا للأشياء عبر خطاباتنا المتبانية، هي الكشف عن مكنون الجمال المستوطن في جواهر الكلم أو مظاناتها (Connotation) على أساس وحدة الشكل والمعنى، وعلى اعتبارها وعي جمالي تفجره تجربة الوعي اللغوي عبر مختلف طرائق التعبير الواقعي للوجود العياني، لا تشبيهاً بالواقع كما ينظر إليه البلاغيون الشكلانيون، وأخص منهم عبد القاهر الجرجاني الذي يرى أن الإبداع بصورته لا بمادته، ويرجع الجمالية والنفعية إلى الصياغة الشكلانية، يقول الجرجاني: "محالاً إذ أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة"[٦٦].

66- عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز" ص١٩٦.

نحن لا نعول كبير اهتمام على الحامل اللغوي من حيث هو مكوّن لفظاني يتضمن نواظم المعاني في السياقات النصيّة، لكننا نقر بحقيقة المحمول الذي يمثل المكوّن الجمالي على اعتباره محتوى قيمي، ونلغى لدى من سلف ذكرهم أنهم يعتمدون الحامل بصفته مصاغ شكلاني، ويهملون المحمول بصفته قيمة جوهرية في العمل الإبداعي.

كثير هم الذين ذهبوا في آرائهم مذاهب متباينة (Dissimilarite) شتى انحازت إلى الشكل أو الصورة أو الحامل أو الدال..الخ. وأخرى انحازت إلى المحتوى أو الجوهر أو المحمول أو المدلول..الخ. وأرجع البعض التأثير الإبداعي إلى وعي وتخييل وشعور المتلقي وحده.

إن اللغة وعي ما هو كائن وممكن بآن معاً، ويتأثر المبدع والمتلقي بالوقائع على قدر سواء، إنها وحدة الوعي اللغوي التي تندرج تحت مفهومه جملة الفعاليات المتناسجة. لا مندوحة في أن الإبداع وعي لغوي تزدوج فيه القيم الجمالية مع المعايير الأخلاقية لأنهما من طبيعة واحدة، فتشكل منظومات عقلانية في حركة الحياة المجتمعية والحضارية لا جرم في أن اللفظة أداة حسية تصدر عن إشارة أو رمز أو حركة تحرّض (Motivation) فينا تداعيات حسية مسبقة أيضاً، فمثلاً لفظة وردة تستدعي إلى مخيلتنا صوراً حسية تتبع بنية اللفظة، فيتم استدعاء الانطباع الفاتن عن جمال الوردة في تشكيلها الهندسي المتناغم، ولونها المنحرف الجذّاب، وعطرها المتميز المنعش، وفوائدها النباتية والصحية والنفسية..الخ. كل ذلك ينضوي تحت ما يسمى بالإحساسات مسبقة الوعي والانطباع، وهنا قد لا نعول كثيراً حسن اهتمامنا على اللفظة من حيث أنها اسم حسي دال إلى شيء مراد، لكنه يتكرر تباعاً في مدلولات حسية عديدة في حياتنا بعامة، لذلك فإن كل

الدلالات الحسية التي تكوّن اللغة التعبيرية هي مشبهات للواقع من صلب الواقع التي يختزنها العقل كوعي لغوي، وينتجها أنماطاً وصوراً وقيم إبداعية مختلفة، ويجوز القول إن إنتاج مشبهات الدلالات الحسية في عملية الوعي اللغوي، هو إنتاج جماليات الدلالات العقلية، كونها تتسم بقيم راقية تتفاعل مع القضايا المعمارية لبُنى الحياة الإنسانية الحقة.

يحلل جابر عصفور المذهب النقدي الجمالي في أصول البلاغة العربية عند قدامة بن جعفر الذي رأى في مؤلفه "نقد الشعر" بقوله: "إن علينا أن نحكم على المعنى، أو نميزه جيده من رديئه لا باعتباره معنى أخلاقياً وإنما باعتباره معنى شعرياً في المحل الأول"[٦٧].

بدهي أن اللفظة اسم مفردة دالة على شيء مثبت المعنى بشكل صرف خارج سياق أية صياغة تركيبية (Compostion) وأن مجموعة ألفاظ في أي خطاب إبداعي هي بنية داخل الصياغة، فالخارج الدال يمنح الداخل المدلول معناه المعياري والأخلاقي على حد واحد، وأنا لست مع قدامة الذي يرى فصل الحكم الأخلاقي وجعله خارج السياق الشعري، ونفيه لأية رابطة بين المعنى الشعري والمعنى الأخلاقي، وفق الملاحظ، يتفق قوله مع الجاحظ، يقول: "إن معيار القيمة في الشعر ليس هو المعاني" ويقصد هنا قدامة، أن الشعر بصيغته لا بمعانيه وقيمته وأخلاقيته ونفعيته، ويتبدى لي، وقع هو الآخر في مغالطات الشكلانيين، لكنني أتفق مع الجرجاني بقوله: "أما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس"[٦٨].

67- عن كتاب "مفهوم الشعر" د. جابر عصفور ص٩٧.

68- عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز" ص٤٠.

وكما يقول الجرجاني في مكان آخر: "تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب بعض"[69].

لم يقتصر نقدنا على مقولات الجرجاني أو قدامة في هذا السياق فحسب، فهناك الكثير من المفكرين الكبار الذين انجرفوا في تيار الشكلانية، وحسبوا أنفسهم أنهم يغوصون مشغورين أعماق محيطات المعاني، فما لبثوا أن وجدوا أنفسهم يغوصون صُعداً نحو سطوحها المتلاطمة، أمثال بندتو كروتشه الذي أُخالفه الرأي بقوله: "إن قيمة الكل تحدد قيمة الجزء" التي تتفق ووجهة نظر قدامة. فأرى أن الصياغة (Craf Tsmanship) تزدوج في تراكيب معانيها المنظومة بين زائنات وشائنات، رذيلات وفضيلات، صادقات وكاذبات ضمن السياق العام في وحدة النص أو المقولة أو اللوحة، فإذا قلنا أن جداراً مكوناً من لبنات وقمنا بتفكيك لبنات الجدار، وقلنا كانت هذه اللبنات جداراً أو أنها تكوّن جداراً، طبعاً لا تختلف قط، كلاهما يوافقان الواقع كوعي قابل للتحقيق، ويقر بحقيقة ما سيكون، لكن الجزء كما هو معروف يخالف حقيقة كونية الواقع للشيء في وحدته –مثالنا الجدار- وينكر بنفس الوقت حقيقة ما كان أو ما هو كائن، إذن أين القيمة النفعية في هذه الحالة؟! إن ما ينطبق على الجدار ينطبق على النص أو المقولة، فهل الصياغة في النص مثلاً هي التي تحدد أو تجسد معنى القيمة فيه؟ أعتقد جازماً أن كلا الحالتين البنائية والتفكيكية، كُلاً وجزءاً يتضمنان القيمة، وتحتملان الصدق والحقيقة لا الباطل والكذب، وتتضمنان في كينونتهما قيمة نفعية وجمالية وأخلاقية،

69- د. عبد العزيز حموده "المرايا المقعرة" ص – العدد /٢٧٢/ سلسلة عالم المعرفة – الكويت.

وتتوقف على فعل المعمارية أو الصياغة، نظراً لأن اللغة أداة بناء المقولة واللبنة أداة بناء الجدار، يقول القاضي عبد الجبار: "اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة"[٧٠].

لو أخذنا النص الأسطوري "الميثولوجي" وعرضناه على مشرحة النقد الأدبي والفني واللغوي، واتبعنا ما طرحته النظريتان الآنفتان، وأجرينا مقارنة منهجية بين أنساق النص الأسطوري، وحللنا كامل ما تضمنته من قضايا شاملة في حياتنا البدائية الأولى حتى وقتنا المعاصر، وميزنا المعاني الواقعية من الخيالية، الصادقة من الكاذبة..الخ، فهل نلغي قضايا ونقر قضايا اعتماداً على نظرية "الفصل" في النص الإبداعي؟ أم نلغي النص الأسطوري برمته، ونقتلعه من جذوره، ولا تعد له من صلة في حياتنا الثقافية والعلمية والأخلاقية والروحية والمعتقدية..الخ، أم نطابق ونوفّق ما بينهما استناداً إلى الوحدة الكلية لمعنى الحياة؟ إذن نحن أمام وقائع تحتمل التخييل أو الواقعية، أو ما بينهما، يتم الكشف عنها عن طريق رموز دالة وإيهامات واستيحاءات، سواء كانت مطابقة للحقيقة أم مجانبة لها، وإشارة ما قد تحرّض الخيال فتتولد عنها تداعيات معانية تتجاوز الإشارة التعبيرية إلى إشارات ذات معان، تكوّن بدورها نصاً متكاملاً في شكله وقيمته وأخلص إلى أن ما يهمنا من هذا الحوار النقدي، هو أن تراثنا الإنساني في محتوى الوعي اللغوي المبدع غني بالخطابات التي تتوفر فيها عموم أشكال الصيغ البلاغية، والأنماط التشريعية، والقواعد الأخلاقية، والتقاليد العرفية، والرؤى الروحية، والمصالح النفعية، والقيم الجمالية، والأحكام القيمية العليا..الخ فمنها ما

70- القاضي عبد الجبار "المُغني في أبواب التوحيد والعدل" ج١٦ - ص١٩٩ - وزارة الثقافة - القاهرة.

بها من شرور مدمرة وقبائح ضارة فضلاً عن منافعها في تقويم سلوكنا وأفعالنا وتعاملاتنا ولا يصح القول أن في الازدواجية حالة وسطية أو اعتدالية أو توفيقية في أية مرحلة كانت، فالجمال لا يكتسب شرعية وجوده أو قيمته أو حقيقته ما لم يكن متكاملاً في طبيعة تكوينه وقيمته وغايته ونفعيته، ولا أظن أن القبح لا يعبر عن سوءته ما لم يكتسب أيضاً مقومات شرّانيته ومضاره وبطلانيته وكرهه، ومهما يكن من أمر، فإنه من العبث الإقرار بوجود حالة توفيقية بين الخير والشر، والقبح والجمال، الكذب والصدق، فالقبيح في ذاته قبيحاً، والجمال في ذاته جميلاً، وإن ما يميز بينهما هو صدق الحقائق وواقعيتها وقيمتها الفعالة في حياتنا النفسية والفكرية والاجتماعية والنفعية.

ومآلنا من الرد، نرى فيه أن تناسلية المعنى في الوعي اللغوي الإبداعي يحقق الدلالة في المصاغ والماهية، ويحققها في الأنساق الكلية والأنساق الجزئية في الوحدات اللفظية، والجمل البنائية، في القيم العتيقة والقيم الحديثة.



الرمز الإيحائي في الوعي الفني

الفن وعي لغوي يفصح عن محتوى العالم جمالياً، والجمال موقف مرموز في بنية العمل الإبداعي، وتشكل حالة الرمز (Symbolisim) في الفنون الإبداعية قضية جمالية حقيقية، والفن معادل جمالي يعبر عنه الوعي اللغوي في رموز إيحائية تفصح عن نزوع الذات الإناسية في كافة التجارب الإبداعية، ويصلح استخدامه في جميع حالات الوصف التصويري أو السردي أو التجسيدي.

سندخل معاً دنيا الرمز بسؤال تقليدي متشعب المناحي. هل منظومة الرموز التي كوّنها الإنسان لنفسه، ومارسها في علاقته الحميمية مع الطبيعة وأبناء جنسه عبر تاريخه الطويل ناشئة عن نزوع فطري "عالمه البيولوجي" أم عن إلهام إلهي "عالمه الروحي" أم عن دافع معرفي "عالمه الذهني" أم عن إفصاح ملحاح عن قيم الوجود "عالمه الأخلاقي" أم عن حاجة طبيعية "عالمه المادي"..أم.. أم؟؟! وقبل الإجابة على هذا السؤال الذي يسيطر على مساحات واسعة تحت المنظور النقدي، وأصناف الأبحاث العلمية والتأريخية، سأكتفي بالإشارة إلى واقع الحال الذي كان يعيشه الإنسان البدائي الأول بسؤال محايث آخر، إنه في حال بقاء الإنسان البدائي يقطن المُغر والغابات، فهلا هنالك من ظاهرة

رمز تفسر سلوكه الغريزي وحالات النزوعات العقلانية التي تشاغله تجاه الوجود؟ هذا إذا فرضنا جدلاً أن الرمز الوحشي تعبير عن الوعي البدائي.

أعتقد بما لا يدع مجالاً للبس والظن، سيبقى ذاك الإنسان قاصر الوعي، جاهلاً بليداً، إذا ما قُورن بأحفاده الذين خضعوا لتجربة تخلقات ملكة الرمز الهائلة التي أنشأت تراثنا الإنساني الغني.

إذا جاز القول وصدقت رؤيتنا، فإن الرمز هو الحايك للنسيج الحضاري برمته، وغني عن البيان، إن عالمنا المعرفي والجمالي ظاهرة رمزية محصنة، صحيح أنها تصدر عن طاقة عقلانية فياضة لا تخضع لمحكومية ما، لكنها تحدد سلوك الناس إزاء ما يبتغون، وسواء كاد الفرد أم المجتمع لا يمتلك حصيلة رمزية يحاكي الواقع والحياة يظل غريزياً بدائياً وساذجاً، غير أن امتلاكه لمفاتيح الرموز مكنته مَن فتح بوابة الأسرار الخفية للبيئة الكونية، ومنحته المكانة المرموقة دون غيره من الكوائن، وجعلت منه سيد الوجود العقلاني.

لا ريب، يتألف عالمنا من جملة رموز واعية منظمة ومنتظمة، لها دلالات روحية وذهنية وسلوكية وثقافية، وسائر ما ينتج عن التخلقات ودراساتها العلمية والفكرية والفنية والأدبية والمعتقدية استفاضت عن الوعي الرمزي، إلا أن قيمها ظلت مثار تساؤلات وافتراضات وتخمينات، لم تتوصل الأبحاث والدراسات العلمية المختصة من تلمّس الحقائق وأشكال تداخلاتها، بالرغم من استخدام مختلف المجموعات الآلية (Mecanism) الفعالة في مناهج الوعي اللغوي التي وظفت بغرض دراسة "سيكولوجيا الأعماق" عن طريق تحليل تجربة الرمز عند الإنسان، ورصده ظاهراً وباطناً سواء في عالميه العياني أم اللاعياني.

إن للرمز معان روحية ذات دلالات خارج حيز العياني تحدد النزوعات القيمية التي يسلكها الإنسان في علاقته المنظمة مع خالق متعال تتطابق مع الواقع العياني بجملة من المفاهيم الممثلة بالقيم العليا (حق، خير، حرية، إرادة، بقاء، وطن، سيادة) -لا أريد الدخول في ظاهرة "الرمزية الميتافيزيقية" لأنني لست بصدد البحث في مدلولاتها بالرغم لما لها من صلة لازبة بالوعي اللغوي الذي اشتقت عنه معظم القيم الروحية العليا، لقد أتيت على ذكرها في معرض حديثي السالف، وأرجع السبب إلى عدم الخوض فيها، الخصوصية والحساسية المعقدة التي تتصف بها الرمزية الميتافيزيقية، وعلى وجه الخصوص موضوعة جوهر الخالق "الإله" الذي يمثل جوهر الإنسان نفسه.

يتعين علينا معرفة حقيقة جمالية هي أن عالم الرموز متعدد ومتباين في تراكيب بناه وأغراضه من جهة، ومتشابه ومتطابق في كثير من نزوعاته الإنسانية الصرفة، وهذا ما يجعلنا نميز بين حضارة وأخرى في تشكيلاتها الاجتماعية والثقافية والمعرفية والروحية واللغوية، وبيان أساليب التلاقح الحضاري في موجبات العلائق الإنسانية الإيجابية التي تخضع للتطابق الرمزي أو التعاون الرمزي أو التمثل الرمزي.. الخ في المجالات الحيوية المتعلقة بالمثاقفة والسياحة والرياضة والتعاون العلمي والتبادل الاقتصادي.. أما الوجه الآخر القائم على الصراع الحضاري الذي تتطلع إليه الدول القوية للهيمنة على مقدرات ومصائر الشعوب الضعيفة غير المتطابقة أنماطها ونزوعاتها ومناهجها وبناها وقيمها الرمزية معها.

غالبية أشكال الغزو والحروب الكبرى ترجع إلى عامل تعميم الدول العظمى سيادة الرمز على الدول الصغرى، ومحاولتها تحقيق أيديولوجية الرمز تحت شعارات التطور والتحرر والتواصل والتجانس بين الشعوب بغية عولمة الحضارة الإنسانية.

إن التعبير عن الجميل في أي خطاب إبداعي تعوزه القدرة الرمزية الإيحائية على وصف الجمال والكشف عن مظانه، أما التعبير عن القبيح فتعوزه القدرة الرمزية الإيحائية على وصف القبح والكشف عن مظانه، وعلى دوام التعاملية الفنية، لا بد من أن تختلف وتتباين مستوياتها وأساليبها وإحالاتها، وأختلف مع مقولة تفيد بأن التعبير عن الجميل والقبيح يتطلبان أسلوباً فنياً جميلاً بالضرورة، قد أتفق مع هذه الرؤية من جانب أن التعبير عن الجميل يتطلب أسلوباً فنياً جميلاً، بيد أنني أختلف تماماً في أن التعبير عن القبح يتطلب أسلوباً فنياً جميلاً، وما يحملني على الظن، هو أن أية حالة تعبيرية تتطلب محمولات رمزية إيحائية، ودلالات معانية، وأنساقاً فنية في البنى النصيّة.. تظل ضمن ما نسميها بـ "أدوات تعبيرية" تختص في ثوابت الشكل الفني والأصول المرعية ليس إلا، أما القدرة الذهنية "الوعي" الدينامي الذي يختص في حركة صنع المعاني المؤثرة كمحتوى جمالي (جوهر قيمي) يقابله محتوى قبائحي، فيرجع ذلك إلى المبدع نفسه الذي يبرز أوجه التقارب بين حالتي التعبير كشكل، ويظهر وجه التمايز بين حالتي التعبير كمعنى، فالمتقارب في التعبير عن الجمال أو القبح يخضع لأدوات بنائية بوصفها شكل فني، والمتنافر في التعبير عن الجمال والقبح فإنهما يخضعان لمعاني قيمية في الجمال، ومعاني متدنية في القبح، بمعنى، أن كلاً منهما يصف الحالة كمحمول يمتلك خواصه من ذاته ولذاته، فجمال الحالة، غرضها إبراز فتون ذاتها، والقبح غرضه إبراز سوء ذاته، فإذا ما وصفنا القبح بأجمل أساليب التعبير كشكل وضمناها أبهى الصور، لما استطعنا أن نعبر عن وجه القبح والنفور منه، وهذا ما يدعم ظني في أن اللغة أداة تعبير عن المعنى الجليل أو المعنى القبيح، لكن هنالك ما يثبت أن

للأشياء ظواهر فنية لا تختلف في مسوياتها، ولها بواطن قيمية مختلفة، فيمكن القول بأنه ليس القبح في أداة التعبير الفني باعتبارها شكل، وإنما بما تتضمنه من معان أو مفاهيم تمثل التعبير عن مداليل المحتوى، وأجزم أن بين المعنيين تشاكل وتنافر في التعبير عن المحتوى وبين الأدوات كشكل توافق وتطابق في السياق، لكن الأداة أو الشكل فإنهما يمنحان الخطاب الإبداعي قدرة تألق أخاذة في طرائق التعبير عن وعي الحالة المنشودة، فالريح كرمز يستخدم في سياقات الخطاب، يحمل أكثر من مدلول، فمثلاً، ريح الشمال رقيق عليل، وريح الجنوب إعصار مدمّر وتتضمن لفظة الريح معان شتى في الساحة الأدبية والعلمية والروحية والأخلاقية والفنية..الخ. ففي الجغرافيا تعبر عن حالة المناخ، فوائده ومضاره وحركته. أما روحياً فتعبر عن الخطيئة والأمراض والفواجع، أما اجتماعياً تعبر عن حالات أخلاقية وتعاملية وخير وشر، أما في الفكر والأدب والفن تعبر عن حالات الاغتراب والاستلاب والتعمية.

هنالك رمز آخر يرتهن بالواقع البيئي، فقد قيل أن الشعر العربي قد نبع في البيئة العربية نتيجة للأوضاع الجغرافية التي فرضت على الإنسان العربي وعياً له خصوصية متفردة، ارتهن بالواقع بشكل لازب، وارتبط الإبداع ارتباطاً عضوياً بمظاهر وحالات اجتماعية وفكرية تتطابق مع الواقع البيئي الذي يغلب على جغرافيته المناخ الصحراوي، الأمر الذي خلق فراغاً روحياً في الذات البشرية، مما يجعلنا نرصد شكل هذا التناوخ بين فراغ الطبيعة وفراغ الذات، وتبين من بعده أن الفن السائد وقتذاك هو الشعر، وعند تقصي حقيقة ظاهرة الشعر، تبين أنها نتيجة لحالة هاجس بالفراغ، يقول

"أوكتافيويات": "القصيدة دائماً وأبداً قناع يستر الفراغ"[٧١]. فالفراغ مجرد رمز إيهامي شفاف تضمّنه الوعي اللغوي للتعبير عمّا يختلج الذات الشاعرة، فيهتز له الوجدان وتتحرض له المشاعر، على الرغم من قسوة الواقع البيئي الذي ينتمي إليه الشاعر أو المبدع. إن رؤيتنا تقارب الحقائق وتؤكد على تأثير البيئة على الوعي اللغوي والحدس الإيحائي والأسلوب الإيهامي، وتثبت أن الرمز مرتهن بالوعي البيئي، كما يبين مساحة الرؤية عند الفنان المبدع، وبالتالي تظهر سمات التجربة الشعرية، فالمقولات (Catgoryes) التي تتضمنها سياقات النص، هي تنظيم يقوم به الوعي اللغوي كي يعبر عن منظومة من التقاليد المعرفية والجمالية والتربوية في حياتنا المعاشية لإمكان تجنب كافة أشكال التغريب وأرى حسب وجهة نظري أنه "من المعلوم لدينا أن الرمز الأسطوري في تجربة المقدس منذ عهد الإنسان البدائي الأول وحتى عصرنا الذي نحن في ظهرانه، منسرب في أنماطنا الثقافية، ولعله يمثل المحور الجدلي في لونيات الفكر بعامة، بل يمثل بنية الوعي إزاء بنية الخطاب الكوني للخالق الأعظم غير العياني"[٧٢].

71- أوكتافيوبات – عن مقالة "الشعر والقصيدة" تر. كاظم جهاد – مجلة "مواقف" عدد /٤٤/ عام ١٩٨٢.

72- انظر في كتابنا "التراث في العقل الحداثي" ص١٣١ – دار الفرقد – دمشق.

الأمن اللغوي

دلت الدراسات التأريخية واللغوية إلى أن معظم لغات الشعوب سواء قديمها أم حديثها، اشتقت رموزها وتعابيرها ومفاهيمها من أصولها الأولى، فتفرعت ونمت وتطورت تطابقاً وتناسباً مع سيرورة الزمن وتعاقب الأجيال، وتباينت في ألوان، واختلاف بيئاتهم، وأنماط سلوكهم، وتمايُز عاداتهم وأعرافهم الاجتماعية –لا أجد مندوحة للتفصيل في هذا الشأن الذي نتناوشه من جانب تألق اللغة معرفياً وجغرافياً خلال التطور الحضاري عند الأمم، لكنني أكتفي بالتنويه عمّا نجم من علوم جادة وحقيقية عن هذه الدراسات المعمقة في طور نمو اللغة داخل شرنقة الحضارة، وسأتقيد في موضوعة بحثنا المتعلقة حصراً بجانب الأمن اللغوي إزاء الجوانب الحضارية الأخرى- وباعتقادنا، ليست اللغة بنية أو كائناً جامداً، وإنما كائناً فعالاً، ينمو ويتطور وفق خصائص الماهية المكوّنة منها، والتي تتماز هذه الخصائص بقدرتها على تنظيم نفسها، وبوحدتها الديناميكية المتواشجة الأنساق والتراكيب والمعاني، ولا تني، لاقت اللغة صعوبات وعوائق، لم تندحر أو تنهزم أمامها، ولم تتأثر بها قط رغم قهر الظروف، كونها تتسم بخصائص تركيبية متكاملة، وتمتلك قوة ردع صلبة، تدافع بها عن وجودها، وتحقق ذاتها.

إن الوعي اللغوي الذي منح اللغة مقومات وحدتها ورموز معانيها، هو الذي يصيغ بحق ظروف التكيف الحيوي مع مجريات الحياة ومعطيات الواقع، ولا يخالجنا شك في أن النظام اللغوي يتبع في ممارسة وظائفه طرائق معرفية راقية ومتماسكة وسوية ضمن سياقات الوعي الإبداعي المتوازن.

لا أجرينا دراسة أنتربولوجية لألفينا تباينات في مجالات الحياة الأساسية، أي لا نجد لدى أي مجتمع واحد تجانساً تاماً، ومن الصعوبة بمكان أن نجد توافقاً بين حالتين متنافرتين، سوى في هيئة اللغة التي نجد هذا التوحد في كل الأنظمة الحيوية التي يشتغل عليها المجتمع في تقويم أي واقعة ما فوق معايير وقيم وثقافة ومعتقد..الخ.

تلوح في الأفق ملامح غزو شرس يستهدف اجتياح اللغة، وشعوب تتوجس خيفة على أمن وجودها اللغوي، فانبرت تُحصِّن ذاتها تحت ما ندعوه بـ "الأمن اللغوي" خاصة إبان ظهور نظرية العولمة التي نشأت بُعيد الانقلابات والتغيرات والتطورات في البنى الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية والثقافية والأيديولوجية في المجتمع الأكثر تحديثاً وحداثة، والتي نجم عنها تغيُر في المفاهيم والمعايير وبدّلت من المناهج والنماذج، ووضعت هذه الخصوصيات في أزمة خيارات بين الانعزال عن عصر الحداثة أو الاستلاب المرتبط بنظام كوني مهيمن على مصير الشعوب ومقدراتها، بمعنى، صياغة أنموذج معياري للغة كونية تتعامل الثقافة المعولمة بشروط محكمة تسوق الشعوب إلى حافة الاسلاب والتكيف والتبعية لنظام لغوي وثقافي تطبيقي بشكل أو بآخر، ما يلبث أن يفقد المجتمع خصائص هويته ويتم بفضل هذا الأنموذج الأُحادي المتوحد فراغ الشعوب من قيمها التراثية، نحن لا نجافي حقائق أن تمليها طبيعة التعامل على عدة مستويات وأصعدة، ولا ننكر ما تلاقيه اللغة

من تحديات وعوائق ذاتية، ونرجع ذلك إلى تجربة الإبداع، سواء كان على المستوى الشخصي أم مستوى الأمة، ونعني هنا، المستوى الذاتي لكليهما، إلا أنه هنالك عوائق على الأصعدة الموضوعةي من الوجهة المقابلة، ونرجع ذلك إلى الظروف الخارجية بعامة، بذا، من الطبيعي، لا بد من ظهور تنافر بين وحدة الذات ووحدة الموضوع أو عدم تطابقهما في بعض القضايا الأشد خصوصية، لقد برزت على حيز الواقع إشكالات تخص الأجناس الثقافية والقضايا الفكرية والأشكال الفنية، والنوازع الروحية والقيم المعتقدية بحكمها قضايا ذات معايير تخضع لمتحولات تقبل التطور، ومتحولات تنفر من الحديد، فأبقت على ما سلف وأسقطته على مفرزات الواقع الراهن، وفي يقيننا أن المنتجات الإبداعية ثمرة عوامل تظافرت على خلق الأدب والفكر والفن، ومن البدهي، نحن نعلم أنه ليست اللغة وحدها التي تُحفز الذات على الخلق فحسب، وإنما قد تلعب العوامل الفيزيولوجية والذهنية والنفسية والانفعالات (Emotion) وصور الألم والمواجع في الإبداع العظيم، يقول الشاعر الفرنسي "ألفرد دموسييه": "لا شيء يجعلنا عظماء مثل الألم العظيم" وفضلاً عن ذلك، لا ننكر فعل التجربة الذاتية والعلائق المجتمعية وأحوال البيئة "الجغرافية" والاطلاع على ثقافات الشعوب، كلها عوامل تفجر القريحة عند المبدع، ولا شك في أن كل ما يقدمه المجتمع من ثقافات وأبحاث ودراسات وقيم إبداعية أخرى تصقل بالفعل ذهنية المبدع.

إن الوعي اللغوي يطفو دائماً على سطح الصراع الفكري والاجتماعي والنفسي، ولا غرو في أن المأزق اللغوي برز نتيجة حتمية للصراع الدائر بين مفهومي الأصالة والحداثة، أما مقولة ما بعد الحداثة المزعومة فهي رؤية تحاول الظهور بمشاريع تعتمد في تأسيسها على مفاهيم لغوية تهندس بذكاء

وحذق المشهد الثقافي والإعلامي والفكري والسياسي والفني، وذلك بما يتناسب والواقع الراهن، وغرض هذه المشاريع تحقيق مناهج التنمية والانفتاح والتلاقح والتطوير والحداثة، بيد أنها ما تفتأ تتطلع صوب توسيع مطامحها بغاية تحقيق مصالح كبرى تخضع الواقع الراهن برمته لقانون واحد ناظم لحركته، يدير آليتها عقل شمولي يُخضع مجمل نشاطات الحياة الإنسانية لقيم مرسومة توجه فعاليتها، وتكف العقل الآخر عن أن يشارك في صنعها، ولأنظمة دونما أن يشارك في صياغتها وفقاً لواقعه المعاش، وتدفعه إلى انتماءات قومية أو عقائدية أو فكرية أو ثقافية دونما أن يعلم بأنه في حالة انفصام إزاءها، شعوب تعيش عالماً يلغي دورها في صناعة واقعها ووقائعها ولحظاتها التاريخية، عالم نكوصي يفقدهم الروح الوثابة لبناء مستقبل آمن مستقر، عالم استلابي يجردُهم الكثير من الرؤى والطموحات التي تحررهم من راكدات الماضي المتخلفة. إن معظم الشعوب المغلوبة على أمرها، هي أشبه بجسد حي، بيد أنه يحمل عوامل مواته كلما تقدم به العمر.

الأجدى بنا في مرحلة التطور العلمي والمعلوماتي وتعدد وسائل الاتصال، العمل على مستويين، أولهما: لغة الكشف، وثانيهما: لغة المكشوف عنه، فإذا كان الوعي اللغوي مقتصراً على كشف الحقائق وليس جلّى الحقائق لاعتبارات المحظور أو المحرّم أو الممنوع في العصور والمراحل السالفة، فإن على الوعي الآن أن يتجاوز مرحلة الكشف، ويرتقي إلى مرحلة المكشوف، وهنا ندخل دائرة "حرية الكشف" ولا يعني كلامنا أن الحرية التي نعني هي خرق للمحرم أو المحظور، وإنما خلق لغة توفّق ما بين حالات الكشف والمكشوف، وهذا المنحى الذي يتطلب من الوعي اتباعه، هو الذي يحدد قدرة اللغة على الصراع من أجل البقاء. لا يتجسد الوعي اللغوي إلا بين

كشف ومكشوف، وصحيح أن اللغة علم يتحدث عن القيم والجمال إلا أنه علم يتحدث عن الأفكار والفكر أيضاً، وهو المعيار الذي نقيس فيه مستوى الوعي المتميز عن باقي أشكال الوعي الغريزي عند الكوائن الحيّة، ويحسن ألا نأخذ برأي من ادعى أن الوعي اللغوي هو الذي يتخلّق عالم الأشياء وينظمه، والرأي المقابل الآخر الذي يقول أن عالم الأشياء هو الذي يتخلّق الوعي اللغوي وينظمه، ومن ثمَّ يضفي عليه ملكة المعاني، أما نحن فنؤمن بفعالية الوحدة المزدوجة بين عالم الأشياء وعالم الأفكار، ولا نعمل في رؤى العزل والفصل، حتى وإن كانت ترى الشعوب، أن باللغة عامل يثبت وجودها أو عدمه، واستمرارية الحضارة أو زوالها، فبها تدوّن تاريخها وعلومها وأفكارها وأحداثها وفنونها، فتعوّل على اللغة معنى وجودها، إذ في كمال اللغة معنى الوجود وكماله، وليست اللغة بما صنعت فحسب، وإنما بما ستصنع، وبما تفرز من معطيات تثبت أنها حقيقة أزلية من حقائق الوجود الطبيعي، وأن كافة أسرار الحياة حقائق أزلية، واللغة أحد أهم هذه الأسرار، ولا نتحرّج البتة من القول في أن اللغة علم الإنسان بوصفه كائن واعٍ يتخلّق المعنى الحقيقي ويفصح عن سرّ الحياة الطبيعية.

إن الوعي اللغوي هو الحيز المتوسط بيننا وبين الوجود، والمعرفة الجمالية هي التي تضيق المساحة، عند معرفة الوجود كوحدة كلية، والكلانية رؤية تضمن الأمن الجمالي والأمن الثقافي والأمن الروحي..الخ.

إن الوعي اللغوي نظام ألسني يوصّف المعنى، غايته معرفة الإنسان ذاته، ويتطلع إلى خلق مناخ يساعده على التكيف مع الواقع، ولا يعني التكيف موضوع الجسدانية، وإنما الارتقاء بملكة الوعي إلى ساميات الفعل الإناسي، الأمر الذي يميزه عن باقي الأشياء الموضوعية.

إن العالم نموذج موضوعي متكامل يحتوي وعياً سامياً إلهياً، ويحاول الوعي الإناسي الحداثي عبر لحظات الكشف تمثل النموذج الموضوعي ليصبح نموذجاً ذاتياً، والمعرفة التي يتخلقها الإنسان هي فهم النموذج الموضوعي كي يصبح أنموذجاً ذاتياً، والمعرفة التي يتخلقها الإنسان هي فهم النموذج الموضوعي بوصفه يمثل المكشوف تحت ضغط الحاجة المقلقة، وليس بصحيح قطعاً أن المعرفة التي يصنعها الناس لا توجد في ذاتها كما يدعي "ديفيد بلايش" في كتابة "النقد الذاتي" ولست أدري لِمَ يخلط "بلاش" المفاهيم وهو أدرى في حقيقة أن كلّ فعل يؤول اللفظ هو إشباع للمعنى، ومحاولة لفهم التجربة، وبالتالي إلى فهم الذات لنفسها؟ أليس هذا القول إشارة صريحة إلى أن فهم التجربة في عمليات الإفصاح عن معاني الأشياء هي إدراك للعالم، وملكة معرفية تكوِّن الذات العارفة وتؤمّن على وجودها؟

نحن نؤكد على أن معنى العالم يستوطن ذواتنا، وأن ما نتخلقه من معان هي إفصاح عن الذات المعرفية بواسطة الوعي اللغوي الذي يستنطق مستبطناتها في مختلف صور التعبير، كما وأننا لا نتفق مع ما صرّح به مارلو / - /: "إن دفع البحث المتعلق بالذات إلى أقصى حد يخلق نزوعاً نحو العبث"[73]. ونجد هذا القول يصب في حوض فلاسفة العبث والوجودية والأصالة الذين قالوا: "إن الإله قد مات وعلى الإنسان أن يحلَّ مكانه".

إن البحث عن أيّة قيمة سواء كانت بطرائق معرفية أم جمالية أم انتشائية أم قانونية أم علمية أم روحية..الخ. بغاية تحقيق وجود الذات، هي حقائق تنتقل بنا نحو الأصول المحضة والقوانين الكلية، لا إلى أوهام أو عبث

73- بيير دو بواديفر "تحوّل الأدب" عن مقال ورد في "الآداب الأجنبية" ص١٢٦ تر. د. عبد الجليل غزالة – المغرب – إصدار اتحاد الكتاب العرب – دمشق.

كما وصفه الآخرون في نظرياتهم، والارتقاء في إدراك حقائق القيم هو الكشف عن وعي الإله المتجسد في تخلقاته، وبيان ما إذا كان الخلاق ما يزال متماهياً في تخلقاته، أم أنه قد تلاشى كهبابة في فضاء سحيق، وظل أثراً من الوعي ما يزال يحكم حركة الوجود بما هو موجود، أو أن الوعي الإناسي ما زال يفصح عن موجودية هذا الأثر؟ وهل عندما يكشف الوعي الإناسي عن كلية الوعي الإلهي، يدرك ماهية الإله كوجود حقيقي أم يفصح عن أثرٍ واعٍ خلفه الإله فحسب؟ ومدى قدرة الوعي الإناسي على أن يحلَّ مكان الإله في سيادة الوجود لما يجد عرشه خالياً؟ أم أنه كلما بحث عن حقيقة ذاته عبر أنماط الوعي الإلهي الخلاق استطاع من خلاله أن يدلف المحراب الإلهي ليجد هنالك الخلاق العظيم في انتظاره كي يبارك له مسعاه في الوصول إلى الحضرة الربانية؟!

وهنا ندعو ألا تكون رؤانا أحكام فرض، وإنما فرضيات، وألا تكون معايير ثابتة، وإنما معايير متحركة، لأن الحياة كشف متجدد لا يقبل المحدودية.

ظاهرة العولمة في الوعي اللغوي

أستهل البحث بسؤال تقليدي حول دور الوعي اللغوي تجاه تحديات العولمة (Mondialistim) أو الشوملة الكونية، أو الكوننة كما اصطلح على تسميتها، وما هي إشكاليتها المعقدة، وأثرها على الثقافة القومية أو الذاتية أو الهوية؟ القرائن والمعطيات المتوفرة في ظاهرة العولمة تفصح عن مفاهيم شاملة، ويتوضح أن أي جانب تتناوله منهجية العولمة له خصوصية متفردة ومغايرة لما تطرحه الأخرى، لكن ما يهمنا في هذا البحث هي وظائف وفعاليات اللغة ومؤثرات العولمة في الوعي اللغوي، ويتبين لنا عن كثب أن فلسفة حديثة تطفو على سطح الفكر المعاصر تدعو إلى "العولمة اللغوية" وتبدو أن مفاهيمها تطال الثقافة والتربية والإعلام قبل أي جانب إناسي يشتغل عليه الإنسان المعاصر في حياته المعاشة، وانتشار مفهوم العولمة يأخذ أبعاداً لا حدود لها، إذ يشمل كلّ الفضاءات دونما أن يتناهى إلى حد أو يأخذ مستوى في حركته فهو يتمدد بكل أشكال المستويات (أفقية-شاقولية) وتعني غاياتها وأهدافها الهيمنة على المقدرات والبنى والثقافات ومن ضمنها "اللغة" التي تضاهي هي مكانتها مكانة العمود الفقري في جسد الكائن الحي، وما نستشفه الآن من خلال معطيات التحليلات اللغوية

المستخدمة في المجالات العلمية والتقنية والدراسات المعرفية والاتصالات المعلوماتية.. وهي لغة ذات مصطلحات معانية خاصة لا تتداولها إلا سادة القوى العالمية، كل في اختصاصه، والساسة من ملاك القرار الكوني، يقول صاموئيل هانتينغتون: "إن العالم يتوجه نحو حرب حضارية تكون فيها القيم الثقافية والرمزية هي الحدود القتالية"[٧٤].

أزعم أن استقطاباً واستنتاجاً ثقافياً ولغوياً للعالم في بداية القرن الواحد والعشرين وربطه في مركزية محورية أحادية، علماً، سبق أن تعرضت الشعوب التي خضعت لهيمنة الاستعمار الأوربي لفرض لغة المستعمِر على الشعوب المستعمَرة ولم تقف عند حدود استبدال اللغة، وإنما حاولت إلغاء اللسان القومي، وها نحن نلمس انقراض اللغات المحلية الضعيفة إزاء تبدل المناخات العلمية والتقنية والثقافية وتوزيع مراكز القوى اقتصادياً وسياسياً التي تنهض بها المؤسسات المتخصصة، والمناهج، والدراسات الاستراتيجية التي تسعى جاهدة إلى احتواء اللغة والثقافة والأخلاق وكل منجزات الآخر.

إن اللسان رمز الحضارة وسبيل الهدية، وصلاح الأخلاق، وروح الفنون، ونبالة الآداب، وفيصل العدالة، ومنطق العلوم، وشاحذ الإرادة، والمعبر عن الحال، وصانع القيم، وصائغ الجمال، وباني المستقبل.

إن الاستلاب اللغوي لا يختلف في غرضه عن الاستلاب الجسدي والنفسي والاقتصادي والروحي والاجتماعي والثقافي..الخ.

يلوح لي في الأفق المنظور أن سياسة محدثة تفرض على مجريات العصر تحديات عملاقة خطيرة تبغي من ورائها احتواء سياسياً للمنظومات الفكرية من خلال منتجات قوى المعنى اللغوي المستندة إلى تجربة الوعي اللغوي بذاته،

74- ورد في جريدة "الخبر" الجزائرية ص٢١ - ١٩٩٨/٧/٢٩.

وخلق فلسفة تحديث مفهوم المنظومات الدلالية المنفتحة على المعنى الدلالي الشمولي، وتحريرها من ربقة المعنى الدلالي الخصوصي، ومحاولة إيجاد نسيجية اتحادية (Communitaris) من خلال مشروع "العولمة" أو "الشوملة" المتعلق بالمنظومة اللغوية، أي كونية "الوعي الحداثي"، بمعنى، تبحث فلسفة اللغة الشوملية عن خلق ذاكرة واحدة لمنظومة الوعي اللغوي لدلالات المعاني العامة العليا تحت نظام معياري شمولي تحركه إرادة فوقية متميزة، مدعية تحت مقولات إعلامية شكلية، دمج الماهوي في المجتمعي لمزاوجة الذات بالآخر، وتصالح الخاصية الداخلية مع الخاصية الخارجية، تحت مفاخيم كبرى (العدالة، الحرية، السعادة، المدنية، الديمقراطية، الوحدة، تطور وحدة المصالح، نفي الفردانية..الخ). وغرضها تأسيس لغة تتبوأ مكانة عليا لقيادة مجتمع مدني متضامن موحد يتمتع بحماية أمنية، ترعى مصالحه تحت ظروف متجانسة تحكمها منظومات معانية تحقق سيادته وحاجاته وإنسانيته.

لا بد من التذكير في أن غالبية المشاريع الفكرية والثقافية والاقتصادية لعالم الغرب، لم تلق قبولاً واستحساناً عاماً لدنّ شعوب الشرق، لاعتبارات عدّة (معتقد، لغة، تاريخ، تقاليد، أعراف، آداب، أساطير، بيئة، علاقات قبلية..) حالت دون تمثلها لمفرزات الحضارة الغربية ومدنيتها، لكن الوعي الغربي حاول جاهداً جسر الهوة لإمكان خرق إهاب الشرق المؤسطر وإفراغ شعوبها من محتواها اللغوي، وسعى بحمية لإلغاء سيادة اللغة المتفوقة على لغاتها بحجة أنها لغات متأخرة متخلفة، وهيمنة الثقافة المنفتحة على الثقافة المنغلقة وتخليصها من ثوخانها في إرثها السحري، لكن الشعوب المغلوبة وضعت كل ثقلها الكفاحي إزاء تحصين لغتها من خرق البراني، ورفضت

أي حوار مع تجربة الآخر الذي غزاها بطرائق حضارية لا إنسانية، بدءاً من الصراع القبلي إلى الصراع الإمبراطوري إلى الصراع الإمبريالي إلى الصراع الحضاري المعاصر المتمثل بالصراع العولمي، إنه بحق صراع مدني حداثي كوني يشمل معظم المعاني التي توحّد الحضارات في ناظم واحد يخضع لإرادة وفكر أممية رأس المال المتمركزة بأيدي حفنة من أساطين العولمة، الأمر الذي دفع الشعوب إلى إشادة أسافين تحول دون تواصلها المدني الكوني في حمأة "صراع المصالح" مما شكل قطيعة وانغلاقاً وتشرذماً وانفصاماً واستلاباً من الوعي اللغوي.

لا يعني بالقطع أن اللغة منظومة قولية، وإنما هي منظومة معانية أيضاً وإرث روحي، وحصيلة ثقافية، ومعتقد مقدس، وتاريخ تحديات أكثر خصوصية وتطرفاً للماهوي الثابت، فتنغلق على الذات الماهوية إزاء الكلانية الكونية.

في بدايات القرن الحادي والعشرين، شرعت تتراءى على جُدر العالم الجديد أخيلة تجسد صوراً لكوائن أسطورية خرافية منبعثة من مغاور الماضي التليد، مما يبعث فينا هاجساً مثيراً للجزع، هذه الأخيلة الممسوخة، تكشف عن أشكال الصراع العالمي الذي ما انفك يوسع مجاله الحيوي من صراع ثنائي القطيعة إلى صراع متعدد الأقطاب، وهذا ما يسمى بـ "صراع الحضارات". فمنذ انهيار الأنظمة الشيوعية الدولية كأحد القطبين السياديين بزعامة الاتحاد السوفييتي، تشمرخ النمط الديمقراطي المزعوم، معتبراً نفسه أنه النموذج الأكثر مثالية واحتذاء وتطبيقاً في قيادة العالم، خاصة إبان نهوض حضارات أخرى لها خصائصها المتجذرة في عمق التاريخ والتراث والثقافة، هذه الحضارات التي أسست ذاتها على قواعد حضارية عما

دها اللغة والدين، وها نحن نعيش في عصر الحداثة قضية الإرهاب التي اتخذ منها صناع "الكوننة" حجة ذريعة لغزو الحضارات وإرغامها على تجديد انتمائها وانحيازها وتمثلها القيم الغربية، وتقبلها الهيمنة الثقافية والاقتصادية والتكنولوجية والمعلوماتية، وإما محاربتها بحجة أنها باتت بؤر قلق ومصدر اضطراب يهدد الأمن والسلم العالميين، فانبرى القطب الواحدي المتسلط يخشى من ظاهرة التكاثر السكاني للعالم الإسلامي الذي يمثل خمس سكان العالم، وظهور حركة الإحياء الإسلامي "الأصولية" التي تُعد أحد أبرز مظاهره -ونحن هنا لا مصلحة لنا في موضوعة حركة الإحياء- لكن العولمة بالمقابل تعد أحد أبرز النظريات الداعية إلى إعادة النظر في ثقافة ولغة وعقيدة هذه الشعوب واستثمارها وفق النمط الأنموذجي لضمان أمنها ومصالحها ودوال هيمنتها وتفوقها عليها.

إن تحصين اللغة لصد الاختراقات (Trensgressions) الخارجية، حاجة حضارية ومصيرية، والعمل على إثبات قدرة اللغة على التصدي لكافة أشكال التحديات العلمية والبرامج والاستراتيجيات التي تريد النيل منها، والحد من استلاب أهم ناظم لحلقات سيرورة التاريخ المجتمعي الممثل باللغة الحاضنة لإرادة وشخصية "الهوية" وكرامة ومعتقد وثقافة الأمة ومنجزاتها. يقول جبران خليل جبران: "روح الغرب صديق إذا تمكّنا منه، وعدو إذا تمكّنا منّا، صديق إذا أخذنا منه ما يوافقنا، وعدو إذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي توافقه"[٧٥].

تأسيساً على ما سبق عرضه، ينبغي أن نميز ما بين خرق إهاب كلام أو لسان الأمة وإفراغه من خصوصيته، وإذابته في خصوصية برانية، همها النيل

75- جبران خليل جبران "البدائع والطرائف" ص١٢٨ – دار طلاس – دمشق.

منه، وتحقيق مصالح عليا على حسابه، وخرق تحولي للبنى التقليدية التي تبرز تألق الخصوصية وتتفرد بها الذاتية القومية بانفتاحها على الأبعاد الحداثية التي تتميز عن الآخر في ما يدعى بـ "المثاقفة" (Acculturation) وللأمانة، فإنه بالرغم من الانتقالات المغايرة ذاتياً وإنسانياً، ظلت الحداثة ضمن إطار الأصول الأولى، فخروجها عن تقاليد المألوف، حالة فيضية إبداعية، وتحرر من "يوتوبيا" الساكن التقليدي وانتقال إلى انفتاحية المتحرج "الرومنسي" والانفتاح بحد ذاته تجربة توليدية في رؤية تجذيرية "للماقبل"، وخلق بنائي وثاب يتطابق مع ضرورة التحولات المعبرة عن روح الزمن المعاش، وإفصاح عن سرّانية الطبيعة في رؤى إبداعية ترى وجه الحياة بمنظار أكثر دقة واتساعاً، واعتماد أساليب أكثر استجابة لمعطيات الواقع، وتحرراً من النموذجية القالبية التي تتميز بها بعض الأنماط المنهجية، فزادت من وعيه اللغوي الذي ما لبث أن كشف المزيد عن أعماق ذاته، والعالم المحيط به، أما قول الجاحظ: "ما ترك الأول للآخر شيئاً" فهذا قول منغلق، يحكم على الذهنية الإنسانية المبدعة بالمحدودية، وينفي تناميها وقدرتها على التخلق التوليدي، وأن طاقة الإبداع قد استهلكها الأولون، مستنداً إلى قول الشاعر العربي "الفرزدق" حين شبه الشعر العربي بـ "الجمل البازل" الذي تقاسمه فحول الشعر العربي القديم، وكف الآخرون من بعدهم عن إبداع ما هو جديد أو حديث، وهذا ما يخالف منطق سيرورة الإبداع والتجربة والتوليدية والحداثة والتاريخ، فاللغة والثقافة والإبداع جملة أنماط وعيوية منفتحة على لحظات انتقالية متجددة بيئوياً وفكرياً وتاريخياً وثقافياً، وليس حكراً على فرد أو طبقة أو مجتمع أو عصر، وهنا يتعين علينا وعي وفهم الحداثة، أنها تضمُّن الأصيل في الراهن، ولا تخلي الراهن عن الأصيل كما راهن عليه

منظّرو الاستقلالية والتفكيكية والتبعيضية (Indivisible) البنيوية ودعاة الثابت "اليوتوبي" ومنظّرو التغيير الثوري الجذري.. فحسبنا أن اللغة والعقل والوجدان آليات مولّدة للطاقة الإبداعية وليس مكاييل محدودة الأحجام، وأوعية استنفذ الأولون ما احتوته من راعشات الذهن، وخافقات الوجدان، وهاجسات المشاعر، وواعظات القيم، وراقيات الأخلاق -سأمر على ذكر مقولة التعددية اللغوية سريعاً استجابة لما أملته طبيعة الحوار في هذا البحث المتشاكل، ولن أُسهب في التحليل النقدي أو أتغور في مظانها- لكننا الآن أحوج مما كان إلى تأصيل لغتنا، وانفتاحاً على لغة الآخر في خضم التعددية اللغوية التي تطرحها النظريات الحداثية، وعلى ما أعتقد فإن التعددية المعرفية لفهم أبعاد الظاهرة اللغوية ودورها في حركة الإثراء الثقافي والفكري والأدبي والفني والنقدي حاجة تقتضيها ضرورات التطور.

لا يغيب عن بالنا بتاتاً، أنه بالرغم من التباينات والاختلافات اللغوية لدنّ الشعوب، وتعددية الأساليب والمفاهيم والمصطلحات التعبيرية، إلا أنها واحدية المعنى في مجمل القضايا القيمية الإناسية.

إن إذابة الكتل المتكلسة، وتسليك أقنية الاتصال مع الآخر، ضرورة ملحة لإمكان استمرارية العمل الإبداعي، وينبغي أن ندرك أن الإبداع المتأثر بالغير، يعتبر جزءاً من الخصوصية القومية، فما ضائرنا من التعددية اللغوية والتلاقح المعرفي والثقافي والعلمي عند الأمم؟! الحق، أن التنوع يطور ملكة الوعي الحضاري ويزيد من تألق الذاتية وتحصُّنها اللغوي، ويرفد المعين اللغوي الإنساني، ويجعل دلالات لغة التخاطب واحدية في المعنى، رغم تعددية المبنى. تغني الحياة بالمعارف الحيوية المتألقة، وتبني وجوداً متجدداً متنام

لفهم الحقيقة الكونية، أما تغريب اللغة، فإنني أراها ليست في الذات اللغوية، وإنما ما تتبعه الطرائق والمناهج التي نقوم بعزلها عن الاحتكاك والتفاعل والانفتاح والحوار (Discour) البنّاء مع المكوّنات اللغوية للآخر، ويجعلها متخلفة إزاء كبريات المعاني القيمية، والطرائق التقنية الحديثة، والقضايا الفكرية المعاصرة المعقدة والأنماط والأشكال الفنية الحداثية، وبالتالي محاولة محمومة لتحديد مستوى تحضُّر هذه الشعوب إزاء التطورات الحضارية والمدنية العملاقة.

تجدر الإشارة إلى أن التحرُّر والحيطة من تأثيرات التعددية اللغوية على الوجود الثقافي والروحي والتراثي واللغوي، ومحاولة إلغائه أو صهره أو تغريبه أو تصفيته حق مشروع تتطلبه ضرورات الدفاع عن الحرية الذاتية وشرعة الخصوصية، ومن السذاجة نفي حقائق تعاملت بها الشعوب والحضارات عبر الأزمان، بالرغم من كل أشكال التحرز والحذر والتقوقع، فهناك تشاكلات مفهومية وتفاعلات ثقافية، ومؤثرات تراثية، وعلاقات اقتصادية واجتماعية –عداك عن الغزو- في الوعي اللغوي، ناهيك عن تعددية المصطلحات التي طالعتنا عند البحث عن خصوصية التكوّن التاريخي للوعي اللغوي وعن إعداد مناهج تأصيله، والعوامل المهيئة للتعبير عن تمايز ألوان الإبداع، فقد نجم عن التزاوج المعرفي أساليب نقدية، وطرائق منهجية حايثت المناهج العلمية الأخرى، وارتقت بجدارة إلى مستوى خليقة بأن نطلق عليها "علم اللغة" وانبثقت عن هذا العلم أنظمة معيارية قيمية رفعت الفكر والثقافة والعلوم إلى مستويات جمالية ومعرفية رفيعة، وهناك محاولات كثيرة في التاريخ حالت دون التزاوج المعرفي الشمولي بين المجتمعات البشرية، نجم عنها تحطم البنى المجتمعية، وأخرجتها عن سيرورة الوعي التاريخي إزاء حركة

التاريخ المجتمعي ثم أعلنت مواتها الحضاري، وعلى الغالب، أن ما ننشده في عمليات التبادل اللغوي أو التوحد، هو البحث عن تثبيت الأصول المعرفية الشاملة للذات الإناسية، ومعالجة مشكلات التبعية التي يطرحها الفكر المتشدد المنغلق على تباين مصاغات النقد التي جفلت من التبعية وتحصنت فكانت أحد أهم التيارات التي عصفت بمنارات الثقافة والمعرفة على شطآن الوعي الحضاري. في عصر التحليل (Theage Analysis) اللغوي لتجربة الإبداع الإنساني، أظهر بشكل مدهش للأمة على وجه الخصوص، ولمنظومة الأمم على وجه العموم معرفتها لذاتها، وبين موقعها في هذا الكون، وأثبت أن التركيب اللغوي فيه خواص تعمل على مصونية التراث، وكشف يعير عن حقيقة وجودنا التاريخي رغم تباين الحضارات وخصوصياتها المتطرفة.

لا جرم، تقتضي الضرورة خلق تشاكلات معرفية بالأنماط اللغوية المجتمعية، بغية فهم التباينات والتداخلات والمفارقات في تاريخ فلسفة اللغة، وفرز القيم والأحكام التي تمكننا من استنساخ القضايا وفق معايير عقلانية، فالقول أن اللغة ظاهرة تاريخية، تأتي من موقفين أحدهما قديم، والآخر حداثي، فالقديم يرى أن اللغة وعي سطحي يفسر ظواهر الوجود، والحداثي يرى أن اللغة منظومة معرفية شاملة تخضع للتوليد الإبداعي.

في ظل التحديات التي تجابهها الشعوب، ينبغي على الأمة العودة إلى ذاتها والتصدي للتحديات يتطلب الالتفات إلى معطيات التاريخ وقراءتها بمنظور عقلاني متأن، فالنظام العولمي الجديد لا يضع إرادات الأنظمة في حالة استتباع فحسب، وإنما يُخضع إرادات الشعوب لقراراته وثوابته المرتكزة على قوانين التفكيك والتجزيء وإلغاء الذات المجتمعية، ومن خلال رصد حركة التاريخ تبين أنه في كل مرحلة تكوين تاريخي تبرز ظاهرة نزوع قومي يدعو إلى إذكاء جذوة الوحدة، وتنشيط حركة الدعوة إلى تحصين الهوية

وتنميتها، وخلق مصدات في فعل الانكسار الخارجي، وحماية الهوية من الانسدار في انكسارات داخلية خطيرة، واللغة أهم فعل تحدي يتوجب الاهتمام به، كونه الرمز الأكثر استهدافاً في مشاريع التحصُّن القومي، فاللغة والوجدان والذاكرة والثقافة والعقيدة الروحية هي الإرادة الحرة للأمة، ولعل معظم الانتقالات في الأنماط الحضارية، وأصناف الإمبراطوريات، والأشكال الاستعمارية، مروراً بانبثاق الفكر القومي كانت امتداداً لحركة التاريخ النامي تحت ضغط المتحولات المجتمعية، وأن ما يُسمى بصراع الحضارات هو أقرب ما يكون إلى صراع القوميات، وأحسب أن الاستعمار الحديث هو الشكل الأمثل الذي يعبر عن استلاب الوعي القومي عند الشعوب التي تتخذ من الأصول العرقية واللغوية والتاريخية مبرراً لسيادة هذا الوعي وتنميته وتعزيزه، بوصفه أداة دفاعية في فعل التحصُّن إزاء التحدي الخارجي الذي يطمح إلى تفكيك روابط اللحمة القومية، قد نفصل بين الحضارة والدين والتراث، لكن من غير الصحيح الفصل بين اللغة والقومية، من حيث أنهما تشكلان هوية الأمة.

وتتبدى العولمة أنها وحدة القوميات التي تتفاهم بلغة وحدة السوق الاقتصادي العالمي لبناء مجتمع مدني تذوب فيها كل المتنافرات والصراعات والفروق، بمعنى "قومية السوق الموحدة".

مصاغات الشعر والنثر في أبنية الكلام

الشعر في اللغة منظوم مفردات، وتتبع مصاغاته قواعد صارمة منغلقة، على عكس لغة النثر المتحررة من منظومات الضوابط الفنية المنفتحة على عموم الصياغات البلاغية، وبالتأكيد نحن لا ننكر البتة الأصول القاعدية الناظمة لمساقات المنثور، بيد أن فضاء المنثور أرحب، ويمتلك حرية أوسع في حركته على مساحة الرؤية في مستوييها الصاعد والمنبسط، بطبيعة الحال، قد يتقيد المنظوم بمشروطيات تتحكم في مساوق الشعر، غير أنه يظل ناقصاً ومنغلقاً ومتذبذباً ومتكلفاً، ويعمد إلى الحالات الإيهامية والسرحان والفلتان في أبنية القصيد، ونرى من منظور آخر، أن للنثر أساليب متعددة المناحي، فهو يتناول جوامع الموضوعات الهامة، والقضايا الملحة، ويعالج أجناساً متباينة، ويخوض مجالات عدة تهتم في الشؤون الإنسانية الأعم ونلمس في النثر نفعاً أكثر من الشعر، وخاصة في مجال الإبداعات النقدية التي كانت بحق السبب الرئيس في تفجير عيون المعرفة.

لقد أسهم النثر في توسيع مجالات الدراسات والأبحاث الفكرية والأدبية والمعتقدية والتاريخية والفنية، وازدهرت بفضله الصحافة وفنون الخطابة، وألوان النقد، والتفسير بكل اجتهاداته، وعلم الكلام بكل صنوفه.

وأزعم، وهذا ما يشاطرني به كثير من الذين يحبذون لغة النثر في محاكاة الحياة على لغة الشعر، من حيث أن النثر لغة لُميّة، تتناول جوامع الكلم المعبرة عن القضايا الإنسانية بكلياتها، بينما تتماز لغة الشعر بفرادتها وخصوصيتها وبيئويتها وانتمائها الإقليمي، وأخال النثر يخاطب العقول بوصفها مصدر أفكار، بينما الشعر يخاطب الوجدانات بوصفها مصدر عواطف، وأخلص، يظل برأينا الفكر أممياً "مجتمعياً" والشعر قومياً "اجتماعياً".

أغنى الوعي اللغوي النثري الفكر البشري بمواريث عقلانية زاخرة أكثر بكثير من موحيات القلب وإيهامات الخيال، وحرّض الرواكد الجوانية في الذات أكثر مما دغدغ مشاعر اللحظة الزائلة، منح القيمة الجمالية الثابتة أكثر مما منح الانتشاء الجمالي الآني.

لا غَرْو في أن الأمم تقاس بفكرها لا بشعرها -لا يعني هنا أنني أغمط حق الشعر في إذكاء جذوة الحياة المتقدة في آتون الروح الوثابة- لكن النثر تبوأ درجة رفيعة وسامية في عصرنا الحديث، إذ أنه أسس القواعد المتينة لانطلاق فكر إنساني حداثي، احتوى جوامع مفرزات الإبداعات العقلانية الناهظة التي أجابت في معالجاتها على جملة القضايا التاريخية والحضارية والمدنية والنفسية والروحية الملحة في حياتنا المعقدة، والمتتبع لتخلقات الوعي اللغوي، يلفى فنوناً نثرية تخصصية حدثية عجز الشعر الشفاف الرقيق عن تناولها ومجابهتها والخوض فيها واستغوار مظاناتها.

يبقى النثر لغة الانفتاح على ثقافات الآخر، وعلى وعي مدنيته، وذائقته، وتفكيره، وأساليبه، فلا مناص من أن النثر يلمُّ بقضايا الآخر أكثر من الشعر على وجه العموم.

لا يُنمي الوعي اللغوي أي إبداع حداثي في سيرورة الإنتاج الجمالي ما لم يتوفر عنصران أساسيان يمثلان قوى الإنتاج وهما: اللفظة والقيمة، أما تقاليد العلاقة القائمة في الصياغات الجمالية في كلّ الأجناس الإبداعية، فترجع إلى أشكال التعابير المكوّنة للخطاب المُنتَج.

لا أعتقد قطعاً في أن أي نحو ما نذهب به وإليه، يصير تطابق الأسلوب مع السياق -الجنسي معياراً جمالياً في الأجناس الفنية ومذاهبها، إذ أن الأسلوب هو قوة منتجة للخطاب، وتمثله "اللفظة" أما القوة الثانية فهي "القيمة" التي تمثل المعيار الجمالي.

قد تخضع الأجناس الأدبية والأشكال الفنية والقضايا الفكرية بمشروطية البيئة إلا أنها لا تنفصل عن النمط الكلاني، أو تخرج عن سيرورة السياق من حيث أن الإنتاج الجمالي يعمل داخل البنية الكلية للمنتج التجنيسي، وكثير من الآراء والأفكار والأبحاث الموروثة والحداثية أخطأت في فرضياتها، ولعلها قد جهلت نسيج العلائق التي تأسيس البنى اللغوية في كلية التجنيس الإبداعي ووحدة المصاغ المعرفي في السياق الكلاني، بذا فإن قوى الإنتاج الجمالي وعلاقات الإنتاج الجمالي تنضوي تحت وحدة السياق الجنسي، وينسحب ذلك على عموم المصاغات التي يُحدثها الوعي اللغوي الإناسي. باتت الدراسات النقدية في مجمل مذاهبها تعنى في تحليل الخصائص اللغوية التي تنماز بها مختلف الأجناس الإبداعية، وما تبحثه في الأسلوب والبلاغة والصياغة واللفظة والقيمة والدال والرمز..الخ، بوصفها طرائق قول أو خطاب محصورة ضمن رؤى ونظريات أدبية، فكانت تعالج القضايا على أساس أنها قيم معرفية أدبية، وليست قيماً معرفية فلسفية، ولكن سلطة الوعي اللغوي تمكنت عبر تاريخ الفكر العقلاني من أن تثبت

دون ريب أن الإبداع هو تاريخ انتقال من فكر أدبي إلى فكر فلسفي، وقد نجد في النظريات الأسلوبية بلاغة تستخدم ألفاظاً جزلى تبتغي إبهار الوجدان ودغدغة شغاف القلب، وتحريض رعشة الحس، بيد أن ذلك لا يتعدى الشكل اللفظاني الذي ينحصر ضمن نطاق فعل البلاغة الأدبية، إلا أن الجوهر القيمي للمنطوق فإنه ينحصر ضمن نطاق فعل القيمة العقلانية، ونحن هنا لا نفصل البتة بين اللفظة والقيمة، أو بين نتاج أدبي أو نتاج فكري، وبين البلاغة وخصائصها المعرفية القيمية، فمن الطبيعي في مكان، قد تصبح البلاغة كلاماً لا معنى له، أو لا فائدة ترجى منه، فتظل الألفاظ تتفيّأ الألفاظ، وتقبع حبيسة المحسنات والتنميقات، فنلقاها تلامس سطح الحس فحسب، ولا تدغدغ جوانب الوعي من حيث أنها خصائص معرفية.

ساد اعتقاد عام سيطر على الذهنية النقدية هو أنه تم اتخاذ القصيد معياراً صرفاً لكافة الأجناس الخطابية، وظلت مفاهيم فلسفة اللغة تتحرى الشكل في البُنى الإبداعية، ولا غرو ما انفكت الألفاظ تتباهى في نيقتها دون مراعاة ما للمهام الوظيفية من تأثير في الإمتاع البلاغي، والإقناع الفكري، والانتفاع الجمالي.

على ضوء المتحولات التاريخية التي طرأت على الفكر، تأثرت اللغة بمناخات الحداثة، وتضطرنا الطروف (الذاتية- الموضوعية) إعادة النظر في قضايا الوعي اللغوي لنقد منظومات اللغة ورصد ما أحدثته في بنية الفكر، ومقارنة منظومات التراث بمنظومات الحداثة لبيان المستويات المتحركة التي تُفعّل الوقائع، والساكنة التي تعيق مشاريع التطوير والتحديث، وجوهر الوعي اللغوي إنتاج ما هو إبداعي وفقاً

لمنظومة القيم الجمالية التي تمثل المعايير الطبيعية والعقلانية، فما من ابتكار إلا وكان يمثل حالة توحّد بين الوجود ومفهوم الإبداع، والابتكار هو العمل المنتج للبنى الجمالية، من ذا فإنه لا وحدة بين الوعي والوجود إلا بفضل العمل الخلاق، ولسنا هنا مع مقولة غوته: "لكي تكتب نثراً يجب أن يكون عندك ما تقوله، أما من ليس عنده ما يقوله فيبقى له أن ينظم شعراً وقوافي"(٧٦).

إن فلسفة الجمال لا تعنى بتربية الذوق الفني الجمالي عند الناس فحسب، وإنما تعنى بتنمية الوعي المعرفي الجمالي، والقيمة الجمالية تحددها الملكة الإبداعية التي يمتاز بها المبدع، وأعنى بالملكة، تمكُن الفنان من تخليق الوعي اللغوي جمالياً، إلا أن كلَّ إبداع فني لا يتضمن قيمة يظل ناقصاً، وعاجزاً تجاه تحديات اللحظات المتطورة، ولهذا تساهم الملكة في صناعة المنتجات العقلانية على أنها جزء لا يتجزأ من عملية الإفصاح عن القيم الجمالية، وبوصف الحقيقة المبحوث عنها جزء لا يتجزأ من القيمة.

76- غيورغي غاتشيف –الوعي والفن- تر. د. نايف نيوف ص٧٣ – سلسلة عالم المعرفة – العدد /١٤٦/ الكويت.

الدلالة في تحليل الخطاب النفسي

إذا ما عالجنا قضية اللغة تحت تجربة التحليل النفسي، فإننا نعثر على الكثير من الخطابا المتعلقة بحالة المرضى الخاضعين لاستجوابات التحليل النفسي (Lapsyche) في المعالجات السريرية، القائم أساساً على علم الكلام التخصصي ولا ريب في أن الكلام لغة وطرائق التحليل تعنى في دراسة فحوى "اللغة السريرية" و"الخطاب السريري" ولعلها أشبه ما تكون بـ طرائق تحليل النص إن جاز تسميته كما هو معهود في دراسة القيم المعرفية الجارية في عمليات الاستقراءات والاستدلالات التي تفسر ظواهر الأحداث المنعكسة عن الحالات المستبطنة في تنضدات الذات عند انفلاتها من الرقابة الواعية، فتدرسها على أنها صور تتوالد متداعية من منطقة اللاوعي، وتعتبر مدارس التحليل هي مصدر المفاهيم الدالة التي أسست علم التحليل النفسي، والذي بدوره كوّن أنماط الفكر الحداثي المعاصر، وبرز جلياً عند أهم مكتشفي ومؤسسي هذا العلم "سيغموند فرويد" الذي كرس جلّ وقته، وبذل جهداً مضنياً في دراسة "الدينامية الواعية" المنتجة للخطاب النفسي الذي يكشف عن المستبطن الذاتي، ويعتبر أن عمليات الاستجوابات السريرية والأحلام حالات تقوم على التفريغ النفسي للرغبة في حالة الكبت، والكثير من

المفردات والجمل تعبر عن هفوات أو زلقات لسانية، أو تعبيرات فلوتية عفوية، لها معان تستتر خلف غلالة الرمز.

إن التأويل عبر النقد التحليلي (Analytigue) يفك نظام الدلائل المرمّزة ليجعلها مداليل صريحة، وقد أنتج التحليل النفسي نصوصاً وخطابات أدبية وفنية وعلمية غاية في الإبداع الجمالي، واهتدى كثير من دارسي النقد والتحليل النفسي عبر نصوص أسطورية وأدبية وفنية إلى مفاهيم وأحكام وقواعد جعلت من الخطاب وثيقة أو مادة أو حالة يم دراستها والرجوع إليها سواء في اهتماماتنا النظرية أو التحليلية أو التطبيقية، وساهمت، الإرهاصات والتجليات الهوامية في كثير من النصوص الإبداعية في معالجة قضايا نفسية جوهرية في الذات الإناسية، سواء عند المبدع نفسه أم عند أي شخصية ما، أم عند أي حدث أُريد له أن يُوظف في تخلقات إبداعية يقول الشاعر الألماني "نوفاليس": "إن الشعر فن الدينامية النفسية". عندما نقرأ نصاً أو نمعن في لوحة أن نسرح في لحن موسيقي.. نلمس وشائج تربط نظام هذه التخلقات الهوامية، فثمة من يراها في النص جمالاً فنياً من حيث أنها شكل ظاهري أخاذ، وثمة من يراها جوهراً قيمياً مستبطناً للذاتية (Subgectivite) يقول "مارسيل ماريني": "أن يقرأ المرء، يعني أن يرى بين الكلمات أنظمة علاقات"[(٧٧)].

للنقد التحليلي عدة وجوه يتناول عدداً من الموضوعات (Themes) الكشفية التي تمس وعي الذات الإناسية، وتفجر مكنونها، وتكشف عنها من خلال أشكال رمزية واستعارات وتلميحات تربطها مداليل معانية مكثفة

77- مارسيل ماريني "بحث في النقد التحليلي النفسي" ورد في كتاب "مدخل إلى مناهج النقـــد الأدبي" تأليف مجموعة من الكتاب – تر. د.رضوان ظاظا – علم المعرفة عدد /٢٢١/ ص٩٩ – الكويت.

تخضع لمفاهيم تفسيرية (Conceptsexplicatifs) معملية، واستقرائية (Inductive) تبين عمق الروابط القائمة بين جملة الألفاظ المعانية، وأوجه العلاقات الناظمة. لدلالات المعاني المتعددة الإيحاءات (Connotative) في وعي الفعل والنازع المتجلي في أدب الذات، وهناك رؤى سطحية تنظر إلى بلاغة النص من روابطه الفنية الشكلية، يقول أحد النقاد في فلسفة البلاغة "ريتشاردز": "كذلك الحال في الألفاظ، فإن معنى أية لفظة، لا يمكن أن يتحدد إلا من علاقة هذه اللفظة بما يجاورها من ألفاظ"(٧٨).

إذن تتحدد جمالية النص ومعانيه وتخلقاته وقيمته في منظور الدراسات التحليلية وفق ما يتضمنه النص من معارف لائذة أو مستترة أو مكبوتة (Refoule) سواء كانت شخصية أم إنسانية أم نصيّة ثابتة أم أسطورية، ويتوليان استنطاقها، النقد التحليلي، والكشف التحليلي، فيبنيان وظائف الروابط والعلاقات في صياغات الألفاظ من حيث أنها قيم جمالية أو نوازع قبيحة، أي الكشف عنها فيما إذا كانت فاضلة أم رذيلة، سوية أم شاذة..الخ.

لا تتوقف الرؤى التحليلية عند رؤية النص من ناحية الدلالة المعانية أو الدلالة الفنية وإنما من ناحية أخرى .هي الدلالة النفسية المعبرة عن سيكولوجيا الأعماق، والوعي اللغوي لسيكولوجيا مظانات الأعماق، هي فلسفة علمية بحتة، تبوأت مكانة مرموقة، وتملكت مساحة واسعة في مضمار الرؤى النقدية في مدارس التحليل النفسي العملاقة، وقد يلمس القارئ أنني قد استعرضت بعجالة موضوعة الوعي اللغوي في مظان

78- محمد زكي العشماوي "قضايا النقد الأدبي" ص٢٩٣.

الخطابات الواقعة تحت مشرحة التحليل النفسي، حرصاً مني على عدم الولوج المعمّق في هذا الحقل الحساس والمعقد، من زاوية، أنه يتفرد بخصوصية متخصصة ومتميزة عن باقي الموضوعات ذات القضايا الأعم في حياتنا الأدبية والفنية والفكرية ومن جهة أخرى، ليس هذا الموضوع مآلنا الذي نحن بصدده.

المرأة في لغة الخطاب الإناثي

كثيرة هي الخطابات الإبداعية التي تعكس فيها صورة المرأة، حتى القوانين والأعراف والشرائع الدينية والاجتماعية.. أظهرت كشفاً مرمزاً ومغلفاً حيناً بين المحذور والمسموح، وأباحت بأسرار ملأى بالفضائح والمخاوف والأحزان حيناً آخر، وعن لغة مقموعة تستبطن اشتهاءات منافية للاحتشام والأخلاق والآداب العامة، وبفضل اللغة تم إزالة السُتر التي تكشف عن المشاهد المؤلمة، وبفضلها يمكن أن نتحرى عما يجري في حياتنا الإبداعية النسوية، ونتقرئ أمانيها وحقوقها من خلال جهادها عبر سبيلين وعرين سلكتهما المرأة، أولهما: تحررها من أغلال "الأنا الاجتماعي" التي تكبلها بقيم ساكنة استناداً إلى ما نصّت عليه التقاليد العرفية، وثانيهما: إثبات حضورها "كذات" تمثل الجنس الآخر، ولها حق المشاركة على الساحة الإبداعية في بناء الحياة المعرفية والروحية والثقافية والتاريخية، شأن الرجل، سواء بسواء، يقول عبد السلام المسّدي في ملتقى المبدعات العربيات في مدينة سوسة "تونس": "إن مفاتيح فهم المجتمعات متعددة، ولكن تأتي اللغة في المقدمة، وبما أننا في رحاب المرأة، فإن أهم ما نستكشف به عالمها هو الخطاب واللغة التي تبدع بها، وهذه اللغة هي في حد ذاتها لغة مقموعة،

والقامع للمرأة ليس الرجل، بل هو ما حصلته هي من إرث فكري عن المجتمع"[٧٩].

تبدو لغة الخطاب الأنثوي مرحلة انقلابية على السائد، ومنهجاً متجاوزاً المألوف، وتحريراً من سلطة الثابت، وحالة أنموذجية معرفية محدثة في البناء الثقافي، وبفضلها انفلت النص الأنثوي من ثوابت القواعد المجتمعية ليتجوى صداه في فضاءات الوعي العقلاني، فالكشف (Heuristigue) الأول للرموز الدالة التي تستبطنها وجدانيات المرأة، كانت بحق النقلة المنطقية التي تجاوزت بها قيم الثابت لتنطلق من الفكر البدائي الوحشي إلى الفكر المدني، وانبرت تساهم في فهم الواقع المجتمعي والثقافي والوجداني، وتتمرد على النزوع القيمي الذي تمارسه السلطة الذكورية عليها عبر مراحل سحيقة من تاريخ العلاقة الدونية، فحققت مكتسبات نزعتها من يد الأنا المجتمعية بجراءة مفعمة بالفواجع والأحزان، بات الاشتغال في لغة الخطاب خير صيغة تتصالح المرأة بها مع المقموع وتجد ذاتها فيها لإمكان التواصل مع الوجود، وتتعامل مع حقيقة موجوديتها بسبب أن اللغة أداة تواصل (Communication) وحقيقة موجودية المرأة تأتي من أنها حق متجلى ينقض قيم الباطل المعتبرة من الأصول الوضعية والعرفية والروحية، والتطلع إلى خلق لغة "مفهومية" مع الحركة الثقافية والقضايا المعرفية المجتمعية، تقوم على علاقة متجانسة ومتطورة في زمن المرأة الحداثي المتحرر من الزمن الأمومي "الأنثوي" وزمن الأبوي "الذكوري" للمشاركة مناصفة في بناء الحياة.

79- د. عبد السلام المسّدي- جريدة أخبار الأدب- العدد /٤٠٨/ أيار/ ٢٠٠٠ القاهرة.

عانى الوعي الأنثوي من القمع الفكري الكثير، ودخل في تصفيات جسدية من قبل الفكر التسلطي البدائي المشحون بالمفاهيم الأسطورية الذي رفض مشروع أو مشروعية لتحرر الوعي الإناثي، نتيجة لخوفه من إفراغ الأنا المجتمعي من مواريثه القيمية السائدة، وأن ما يؤسف له، أمست هذه المفاهيم متعضية في الجسد المجتمعي لما اتخذت صفة القداسة الأولى، فاندحر المتحرر المعقول أمام الجامد المنقول.

إن خرق (Transgression) الخطاب الإناثي لحواجز المحظورات الجاهلية التي نصبتها سلطة الفكر الأسطوري، ساهمت بحق في بناء واقع جمالي وأخلاقي ومعرفي وليس كما وقع في ظن المتزمتين الروحيين الذين رأوا في هذا الخرق التحرري تكريساً لواقع منهار أخلاقياً، يقود إلى القبائحية والفساد المعرفي والثقافي والأخلاقي والجمالي، فالمُتمحص للأنساق القولية والدلالات المعانية في بنى الخطاب الإناثي، يجد انتماء صريحاً للواقع، ويلمس أنسنة شفافة متجلية بصورة نوعية، تدعو إلى البناء الفكري والاجتماعي والحضاري، وأحسب أن هذا التجاوز ليس نهاية وجود الخطاب، وإنما مراهنة حادة على ثباته وتأصيل موجوديته، وإلغاء معايير متخلفة في أنماط العلائق الإناسية مع المرأة.

ما انفك الخطاب الإناثي يحفر مجراه في شعاب الثقافة، ويؤصّل وعياً حداثياً في الأبنية المعرفية والأخلاقية، ويؤلف ما بين الوعي الذكوري، والوعي الإناثي من حيث أنهما يمثلان وحدة الوعي للوجود.

الفهرست